الفصل التاسع

المخـــزن
رقم (٦) الرهيـــب

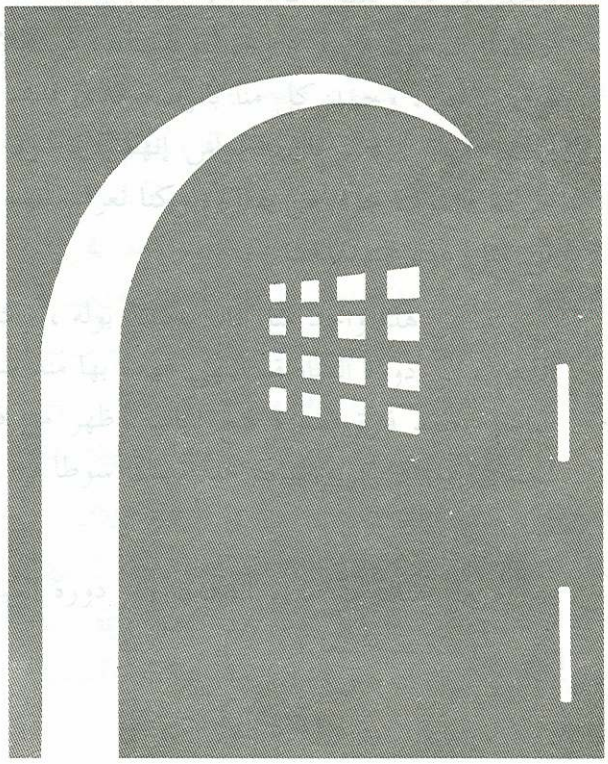

هو حجرة فى الدور الأرضى على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة ، تقع أمام بئر الماء ، لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحربى ، ويقع المستشفى أمامها مباشرة ، وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة فى نهاية الطريق المؤدى إليها .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة ، فهى ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها ، فقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون ، بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها مخزن رقم (٦) ، لاتزيد عن عدة أمتار ، وكانت تفوح منها رائحة البول والبراز والصديد ، وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة ، فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت ، وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التى تثيرها رائحة الجروح ، وهنا ينبغى التنويه ، لقد أدخلنا المخزن وليس فينا واحد إلا وبه بعض الجراح ، والدم يسيل دون توقف ، أدخلونا المخزن فى فزع وخوف فتساقطنا فى ظلامه كل منا فوق الآخر ، وجمد كل منا بالوضع الذى قذف عليه حتى مطلع النهار ، فقد قال الحراس إنهم لايريدون أصواتا أو حركة فالموت جزاء من يفعل ، وكنا نعرف أنهم لا يكذبون فى مثل هذه التهديدات .

شذ عن هذا واحد منا كان يحبس بوله ، وكان أقلنا فى الذهاب إلى دورة المياه قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة ، فبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح لجندى عملاق كريه المنظر قد أمسك سوطا فى يده وصرخ فينا :

– هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟

وسكتنا جميعا !

وفتح الجندى فمه بسباب قذر بذىء ، ثم صرخ ثانية مكررا نفس السؤال ، وكان الظلام شديدا ، فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه ، ولكن الخوف هو القاسم المشترك بينها بطبيعة الحال .

وتشجع صاحبنا ، وطلب الذهاب إلى دورة المياه ، وكان لواء فى الجيش ، فأخرجه الجندى الكريه المنظر من المخزن بعد أن مر هذا الزميل فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب .

وأمام باب المخزن ، حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من المصابيح الموجودة فى المكان ، ضرب هذا الضابط الكبير ضربا شديدا موجعا ، ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أمامنا وبعد هذا كله ألقوه فى البئر ، وعندما أوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا يقطر دماء وماء ، وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها .

وكانت هذه (العلقة) مدعاة لاستغنائه عن الذهاب إلى دورة المياه ، فقد تبرز الرجل وبال على نفسه ، وصارت رائحته تزكم الأنوف القريبة منه ، وكان منها أنفى ، وبقى كل فى مكانه يجتر أفكاره وآلامه فى صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنأمة ، وكل ربع ساعة تقريبا يفتح الباب ويقذف إلينا بمعتقل جديد ، يقذف كما يقذف جوال ملىء بالبطاطس مثلا ، دون ما اهتمام ، وفى العادة يكون هذا الشخص عائدا من التحقيق أو من منزله .

وكان الظلام شديدا فلم نستطع تمييز وجه أحد ، ولكن كانت هناك أيد تمتد فى الظلام لتكتم الأنات الخافتة الصادرة من أفواه الجرحى خوفا من بطش الجنود ، وكان جوعنا شديدا وعطشنا أشد ، ولكن ، ماالجوع والعطش بجانب هذا

الخوف العارم الذى يقتلع القلوب من الصدور ؟ وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس :

– ياجماعة .

وانبرى إليه صوت الضابط الكبير ، الكريه الرائحة من ملابسه المتسخة بالبول والبراز :

– ماذا تريد ؟ ألا يكفيك مانحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بإلحاح :

– لقد اكتشفت شيئا هاما .

– وماهو ؟

– بجانب الباب وعاءان من المطاط .

– ماذا تعنى ؟

– أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب ، ولكن لا أدرى على وجه التحديد أيهما للبول وأيهما للشرب .

وقام بعضنا بخفة وتلطف شديدين ، يتبول الواحد فى أناء ويشرب من الآخر .

وفى هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فى حياتى ، ولم يكن طعمه مريحا على أية حال ، وليس هناك داع لأن أقول: إن أحدا منا لم يذق طعم النوم فى هذه الليلة ، وربما لليال أخرى أتت فى أعقابها ، وكانت الآلام التى واجهناها وعايشناها تشغلنا قليلا عن التفكير فى التحقيق الذى قد يدعى إليه أحدنا فى أية لحظة من اللحظات .

وقد قدر لى أن أعيش فى هذا الانتظار أكثر من أربعين يوما حتى أرسلت بعدها إلى التحقيق ، وقد رأيت كم هو مختلف عن مثيله فى أبى زعبل ، إنه القتل تحت السياط والأسياخ الحمراء ، وخلع الأظافر ونهش الكلاب وأسلاك الكهرباء ، أو تحت وطأة ركل الأحذية الثقيلة .

وفى رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا باثنين ثم نودى على أحد الأسماء ، وقام صاحب الاسم يرتعد خوفا وفرقاً ، ونحن نستمع إلى صرير أسنانه وصرت أركز بصرى فى الظلام واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتى من المصابيح المنتشرة عبر الساحة ، كان الضابط المسكين الذى لم يسترح من علقة المساء ، لقد طلبوه للتحقيق ، وإنى أعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركنى دعائى الحار حتى يخفف الله من آلامه وهو ذاهب إلى مصيره المجهول .

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط ، وأكلت الكلاب من جسمه حتى شبعت ، وفى لمح البصر سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه أو تخفيف آلامه التى كانت ممثلة فى أناته الخافتة المعذبة وكانت ملابسه غارقة بالدماء ، وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف ، كان جسده جرحا كبيرا غائرا ينزف دما من كل مكان ، ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرهما ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلى معها أن جنبات السجن قد ارتجت ، ثم سكن إلى الأبد .

وكانت خسائر هذه الليلة اثنين من القتلى وأكثر من أربعين جريحا كما علمنا فيما بعد .

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين فى بطانية من الصوف إلى حيث لايعلم أحد .

وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة فى الآلة الرهيبة .

لاأكتمكم أن أحدا لم يحزن على واحد من الذين ماتوا فى الليل ، لم يكن فى قلب أحدنا مكان للحزن فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا ، وكنا نغبط الذين ينجون من العذاب بالشهادة والذهاب إلى الله .

فتح باب المخزن قليلا ، واستطعت أن أتبين فناء السجن من خلال عينى اللتين أضناهما السهر والألم وأبخرة البول فى تلك الليلة الحارة .

ورأيت منظرا لاأنساه .

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا ، وهو يصرخ ويستغيث ولاتجيبه سوى فرقعة السياط الملتهبة على جسده الواهى الضعيف ، وسكت الشيخ أخيرا بعد أن بح صوته من الاستعطاف وطلب النجدة ، وظلت يداه مرفوعتين إلى السماء الصافية ، ولاأدرى أكانتا تحتجان أم تتوسلان ، وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مرسومتين بالزيت ، ولم تكونا من رسم فنان ، بل كانا رسما شبيها برسم الأطفال فى السنة الأولى من مدرسة ابتدائية ، وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح .

« كنت أخادع الحياة كى أعيش كما أريد »

ولاأدرى من كتبها ، أكان منكوبا مثلى ، أم أحد الجلادين .

كنت أشعر أننى فى كابوس مزعج ولاأحتمل التفكير فيما يدور حولى ، لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك الآلام ، ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم المزعج ، وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة ، كانت الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان

محدود الطاقات ، كان شيئا مرا كالعلقم أو أشد مرارة ، ولم يكن أمامى فى مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل .

ورويدا رويدا أصبحت أبعد التذمر عن قلبى وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وأدعو من قلبى أن أكون منهم وأن أتحمل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو احتجاج .

دخل جندى كريه الوجه واليد واللسان عرفت أن اسمه (الروبى) وانهال علينا هذا (الروبى) بسيل من الشتائم البذيئة وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر ، ولكننا على ثقة من أنه يسبنا سبا قبيحا .

كان يحمل فى يده وعاء قذرا ، وبأصابعه المتسخة صار يعطى كل واحد منا قرصا صغيرا من الطعمية ، وتمخط أثناء ذلك مرتين ، ومسح يديه فى بدلته الرسمية ، وعاود التوزيع ، وأذكر أننى لم أتقزز ، كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شىء ، ثم ألقى فوق رؤوسنا حفنة من الأرغفة ، وانصرف .

وأحصينا الخبز فوجدناه كسرات مجموعها مايوازى خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين ، فكان لكل عشرة رغيف واحد من الخبز ، بعد جوع طويل ، ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام ، ولم يكن الرفض احتجاجا أو تكبرا ، بل الخوف يجعلنا لا نحس بضراوة الجوع .

وبعد قليل دخل الجندى (الروبى) نفسه وأعاد على مسامعنا ماسبق أن قاله ، وكان ممسكا بيده اليمنى سيخا طويلا من الحديد ، وفى يده اليسرى ، كوبا من الألمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاى .

وبسيخه الطويل شج رؤوس بعض المساكين وانسكب قدر كبير من الشاى الموجود فى الكوب أثناء ضربه لنا ، ثم أعلن لنا مفاجأته : كانت بقية الشاى الموجود فى الكوب هو ماتقرر صرفه للخمسين المجتمعين فى مخزن (٦) الرهيب .

وفى هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاى احتقارا منا لكل شىء ، وبقى فى مكانه حتى الظهر .

واكتشف الروبى أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقة ساخنة .

بعد ذلك أتانا جندى آخر أشد بشاعة من صاحبه ، لقد تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضى حاجتنا ونغتسل ونشرب بدل البول ماء زلالا من الصنابير ، ولم تتم الفرحة ، ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عدوا والسياط والكلاب تنوشنا من كل ناحية ، ظهورنا ووجوهنا ورؤوسنا ، وأدخلوا كل واحد منا مكانا ، وكان المكان قذرا جدا والبراز يملأ كل شبر فيه ، ولا توجد به نقطة واحدة من الماء ، ليس هذا فحسب ، بل فوجئت – عندما أغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئا – بالجندى وقد فتح الباب فى قسوة وانهال على ضربا بالسوط ، وارتبكت ، ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط ، كان فى نظرى مجرد مخلوق من مخلوقات الله ليس إنسانا وماينبغى أن يكون ، أسود الوجه ، غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة نتنة بفعل التعفن الذى أصاب اللثة والأسنان من زمن بعيد ، وكانت البقع الجلدية الباهتة البياض تتخلل وجهه الدميم ، وتذكرت دارون وحلقته المفقودة ، وكذلك مر بمخيلتى الكاتب النرويجى ابسن .

وانطلق من فمه الأهتم صوت كالزئير :

– اطلع بره ياابن الكلب .

– يافندم . لسه .

– انت بترد على ياجربوع ياحثالة . يا .. يا..

والسوط يفرقع فى حمية وشدة وحماس .

وعدت إلى المخزن ، وماستفدت شيئا من هذه الرحلة المشئومة إلى دورة المياه غير العلقة الساخنة ، تلك التى تركت آثارها جروحا فى وجهى وعلى كتفى وظهرى ، ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المذعورة ، والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوى فى الفضاء الخانق عبر ساحة السجن الكبير .

وجلست مكوما ساخطا بين عشرات الأجساد التى ألهبتها حرارة السياط ، وعرفت أن أحدا لم يقض حاجته ، وظلت الوجوه صامتة قاتمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده فى عصبية وانخرط فى بكاء مرير ، ونسى نفسه وتمتم بكلمات :

– هذا ظلم ، هذا ظلم .

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

– كلنا نعرف أن هذا ظلم ، فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة ، فنحن لاندرى من سيموت منا هذا النهار .

وخيم صمت مطبق على المخزن لم يقطعه إلا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد .

وعاد كل واحد فينا يجتر أفكاره فى شرود .

وكان كل مايشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة ، شعبان بتاع الخانكة ، أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك ياشعبان ، يسألوننى عنك وأنا لاأعرفك ، وسأموت من أجل جهلى بك ، ولكن الموت تحت السياط شىء رهيب ياشعبان ، ربما يجلدونك فى هذه اللحظة .

ووجدت نفسى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :

– ياجماعة ، هل فيكم من يعرف شخصا من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :

– أنا من الخانكة ولاأعرف فيها من يدعى شعبان غير رجل فى الستين من عمره يعمل فراشا فى الوحدة الصحية .

واقتربت منه بإلحاح :

– هل له علاقة بك ؟

– لاأظن ، إنه رجل أمى ولايفهم شيئا من شؤون السياسة .

– هل له علاقة بالإخوان ؟

– كلا .

– ومن أدراك ؟

فأجابنى فى تأفف خوفا من حضور الجند :

– أنا من الإخوان ، صدقنى ، ليس فى المنطقة كلها شخص واحد فى جماعة الإخوان يحمل هذا الاسم .

وعدت إليه فى إصرار وتوسل .

– أرجوك .

– ماذا تريد بالضبط ؟

– أعطنى أية معلومات عن شعبان .

– فراش الوحدة الصحية ؟

– نعم .

– لماذا ؟

– سوف يسألوننى عنه ولاأعرف عنه شيئا على الإطلاق .

وأجابنى بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث ، فكل منا له مشكلته المعقدة :

– لقد قلت لك ، هذا رجل مسكين ولايعلم شيئا عن العالم ، وربما لم يغادر الخانكة أبدا ولم يكن له أى نشاط سياسى ، وربما لايعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام ، هذا الشعبان الذى يسألونك عنه لايمكن أن يكون من مدينة الخانكة ، فلا تشغل بالك وتشغلنى معك .

– ولكن .

فقاطعنى :

– أرجوك أن تسكت ، فى رأسى مايشغلنى ، وليس عندى كلام عن شعبان أكثر مما قلته لك .

وعاد إلى نظرته الشاردة وإلى مافى جوفه من خوف وهلع وانشغال ، وفشلت كل محاولاتى معه لأجعله يتحدث عن شعبان ، ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية ، كان الألم يفترسها افتراسا ، وكانت وجوها مصفرة كئيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط ، وكان فى بعضها دم مازال رطبا طازجا ينز من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه ، ويبدو أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شرود كاملة .

كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولايفعل هذا الإنسان شيئا سوى أن يزيحه بأصبعه إذا اقترب من عينيه .

وصرت أتنقل ببصرى من وجه إلى آخر ، وأجدها جميعا متغضنة ولاشىء يميزها عن بعضها بعضا ، ثم وقف نظرى على وجه ، كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار ، ولاأدرى لماذا ركزت عينى على مكانه فى الظلام حتى أستطيع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار ، وقد شغلنى قتل الضابط للحظات عن أى شىء آخر ، والآن واتتنى الفرصة لأتأمل هذا الإنسان .

كان وسيم الوجه ، فى الخامسة والعشرين – هكذا خيل إلى – على شفتيه ابتسامة ميتة ، أو ابتسامة فى طريقها إلى الموت ، يرتدى ملابس فاخرة ، حليق الذقن والشارب ، وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم يرسل نظرات إلى المكان ، ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو ظلت فى طريقها إلى أن تموت .

وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه ، ولاحظ صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين ، وكنت أسأل نفسى ، ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ أين ومتى ؟ ترى ماذا يكون مصيره بعد حين ؟ وماذا يكون مصيرى أنا ؟ لقد كنا جميعا نقف على حافة الأبدية ، وكانت رائحة الموت تملأ أنوفنا ، فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى نمارسها فى هذا المكان .

واقترب هذا الشاب بوجهه منى ، فقد كان لايبعد عنى بأكثر من شبرين ، وباهتمام بالغ همس فى أذنى :

– أريد أن أفضى لك بشىء بالغ الأهمية .

وارتعدت فرائصى ، ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟ وقلت له وكأنى أدفع خطرا عنى :

– أنا لاأعرفك ، ولم أرك قبل الآن .

وكأنه لم يسمع كلماتى .

وخيل إلى لحظتها أن ابتسامته قد بعثت ، ولكنى عرفت بعد ذلك أنه كان وهما صوره لى اقتراب وجهه منى .

وقال لى :

– اسمى عاطف ، أعمل فى بنك مصر .

– ياسيدى لاأعرفك ، واسمك لايذكرنى بشىء .

– لاترفع صوتك واستمع لما أقول .

وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب فى ورطة ، وتخيل أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة ، وفى نوبة من نوبات الشهامة قررت أن أستمع إليه ، والتفت إلى فى حماسة ، وآلمتنى نظرته الحزينة ، وقلت له :

– ماذا تريد ؟ أنا تحت أمرك ، ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئا .

– ألا تعرفنى حقا ؟

– كلا .

– حاول أن تتذكر ، وجهك ليس غريبا عنى ، يخيل إلى أننى رأيتك فى مكان ما .

– صدقنى ، لم أرك قبل الآن .

– لماذا يبدو وجهك مألوفا لدى اذن ؟

– لست أدرى .

– هل تستطيع أن تكتم سرا ؟

– فى هذا المكان ؟

– نعم .

– أليس من الخير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ ربما .

– ربما ! ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سرا .

– إذا كان ذلك الإنسان أقوى من السوط .

– وهل السوط أقوى من الإنسان ؟

– لست أدرى ربما .

– هذا لايهم ، سأقول لك سرى .

– أنصحك بالتريث .

– دعك من هذا سأقول لك .

– ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟

– وجهك يبدو مألوفا لدى .

– ألا تخشى أن يخونك التقدير ؟

– وماذا يهم ؟
– فى الحقيقة أنك تثير اهتمامى .
– كأننا أصدقاء .
– فى الماضى كلا .
– أقصد أن نتصادق الآن .
– أنت تمزح ولاريب .
– كلا ، أنا أعنى ماأقول .

ووجدت نفسى أبتسم بسمة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب ، أفى مثل هذا الوقت يحاول أن ينشىء صداقة ؟ ربما إحساسه بالخطر هو الذى يدفعه إلى الارتباط، ربما يريد أن يحتمى خلف شىء ما ، ربما . وربما .

ووجدت وجهه صبوحا نبيلا مليئا بالأسى ، ونظرة صافية حزينة تشع من عينيه وابتسمت من جديد ، وكانت ابتسامة عذبة مخلصة ، وكانت لحظة سعيدة ، وكدت أضحك وأنا أقول له :

– أنا موافق ، لابأس أن نكون أصدقاء ، اسمى ..

وقاطعنى :

– نسيت أن أقول لك السر .
– أى سر ؟
– السر الذى حدثتك عنه قبل قليل .
– آه لا بأس ، إنى مصغ إليك .
– وتلفت حذرا هنا وهناك ، وبدت عليه علامات الجد والاهتمام .
– الموضوع له علاقة بنبيلة .
– نبيلة ؟
– نعم .

– ومن نبيلة ؟

– اصبر ، سأذكر لك كل شيء فى حينه .

وبدأ الخوف يغزو قلبى من جديد ، وغاصت سعادتى ، كنت أريد أن أبتعد بأى اسم لأى فتاة عن هذا المكان ، فأى اسم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتى خلال ساعة من الزمن ، ولو كان هذا الاسم لعفريت من الجن على حد تعبير أحد الضباط ، ولكن عاطف هذا لم يكن ملتفتا إلى أفكارى التى تنساب عبر عقلى ، ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط ، وأتانى صوته ضعيفا :

– كنت أحبها ، حبا عميقا ، وكانت هى كذلك ..

وشملنى إحساس عارم بالسخرية وقلت له :

– لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك .

ونظر إلى بجدية وهو يجيب :

– نعم ، وماذا فى هذا ؟

– لاشيء ، ولكن ألا ترى أن المكان لاتناسبه هذه القصة ؟

– ولكنى أراه مناسبا تماما .

وتفرست فى وجهه ، كان المسكين فى حالة ذهول كاملة ، وأدركت ذلك عندما دققت النظر فى وجهه ، وأحسست بمدية حادة تمزق قلبى ، كان المسكين فى حالة غير عادية ، لقد أذهله الموقف ، وشعرت بالحيرة ، ماذا يمكن أن أفعله له ؟ لاشيء وفجأة رأيناه ينخرط فى بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول :

– لقد أخذوها عنوة ، توسلت إليهم أن يتركوها فرفضوا ، كانت فتاة رائعة .

وقاطعته فقد وقف شعرى من هول المعنى الذى تحمله هذه الكلمات :

– عمن تتكلم

– نبيلة ، كنا سنتزوج بالأمس ، جاء المأذون لعقد القران ، ولكن .

– ولكن ماذا ؟

– قبض على أنا وهى ، أخذوها .

– من الذى أخذها ؟

– المباحث الجنائية العسكرية .

– أثناء عقد القران ؟

– قبل أن يعقد .

– لماذا ؟

– لست أدرى .

– أنتما من الإخوان ولا ريب .

– أنا وهى من المسلمين .

– إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء .

– لحساب من ؟

– لحساب الروس ، لحساب الأمريكان ، وربما لحساب اليهود .

– اليهود ؟

– نعم .

– ألسنا أعداء لهم وفى حرب معهم ؟

واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة فى جبينه وهمس :

– نحن نعاديهم فى الظاهر ، **أما حقيقة الأمر فنحن خدم اليهود المخلصون** .

– نحن من ؟

– المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم .

– أنت تقول كلاما خطيرا .

– أنا أقول الحقيقة ، كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب .

– أية حرب ؟

– بعد أن ينتهى هذا المعترك سوف ندخل فى حرب مع إسرائيل ، وننهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة . (١)

– لعمرى هذا أمر غريب .

– ستأتيكم الأيام بما لاتعرفون .

وكان عاطف شارد الذهن ولعله لم يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

– عندما أتينا ذهبوا بها إلى مكان ، يقولون سجن اثنين ، وهنا أخذ منى الأمباشى دبلة الزواج .

وقال له الشيخ :

– أكانت دبلة من الذهب ؟

وأجابه عاطف :

– نعم . كانت كذلك .

– ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل فى أفكاره ، أنا أفكر فى شعبان بتاع الخانكة ، وعاطف يفكر فى زوجته والشيخ يفكر فى اليهود القادمين .

قطع علينا الصمت الذى يخيم على المخزن صوت فتح الباب فى جلبة وضوضاء ، ودخل جندى كريه كأصحابه ، يحمل فى يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون لحلق الشعر ، وكان يمسكها بطريقة مخيفة ، كأنه يمسك بآلة حادة يهم أن يبطش بها بإنسان ، وتكلم كأنه ذكر الخنزير .

(١) كان هذا الحديث فى الأيام الأولى من سبتمبر عام ١٩٦٥ أى قبل الهزيمة العسكرية فى يونيو عام ١٩٦٧ .

ياأوغاد ، ياأولاد الكلاب ، ياحشرات ، ستحلقون رءوسكم القذرة بعد قليل ياأبناء العاهرات ، وهذا شرف لايليق بكم يالمامة ، عبد النبى ، نعم أنا الأسطى عبد النبى . (وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق والمجند حاليا ، سأحلق لكم ، هل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد ، هيا تعال أنت .

واختار واحدا منا وكان الذهول يلفنا كالدوامة ، وتقدم الشخص الذى اختاره ، وجلس صاغرا بين يديه كالمغشى عليه من الموت ، وكان هذا الشخص ملتحيا ، ورأينا الأسطى عبد النبى الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الحلاقة كما يدعى ، وقد هم به كأنه سيفترسه وليس ليحلق له .

ومن بين الكلمات والصفعات المتوالية حلق له ، وكانت حلاقة عجيبة ، فقد حلق له نصف لحيته ونصف الشارب المحلوق ، ثم حلق له شعر رأسه ، وختم الأسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشيا عليه .

واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصرخات والأنات المكتومة ، والكلاب تعوى فى فناء السجن ، وماكينة الحلاقة فى يد عبد النبى التى تقطر دما ، وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنات وعواء الكلاب الضارية فى فناء السجن .

وجاء دورى فى الحلاقة وكان نصيبى جرحا عميقا فى أعلى جبهتى .

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الاسطى عبد النبى ضاحكا مسرورا ، ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من الشتائم المنتقاة التى – والحق أقول لكم – منها مالم أسمع

به قبل أن ينطق بها الأسطى عبد النبى ، وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جراحنا ، ولم تكن هناك أدوات الإسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق .

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق ، وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين وترك فى العراء حتى جفت جروحه وتقيحت ، وفاحت رائحتها الكريهة ، فلحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثا ، وتكوم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة .

« رجلى ياناس ، الحقونى ياناس ، النار ، النار ، ياناس ، حاموت ، ألا يوجد فيكم مسلمون ، والله ماأعرف حاجة عن الإخوان ، الله يلعن السياسة ، ياناس أنا عربجى ، إيش عرفنى بالإخوان ، ياناس واحد يطفى النار اللى فى رجلى » .

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصديد ، ولم نكن نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه .

وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان ، اندفع الدم فى عروق أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقا عصبيا حتى يأتينا أحد الحراس ، وتجمد الدم فى عروقى ، وفى عروق الموجودين على ماأظن ، ولم نتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة ، وصح ماتوقعنا ، فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين ، وفى يد كل واحد هراوة ضخمة ، وكأنهم كانوا على استعداد وفى انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجها :

– وقعتم فى المحظور ياأولاد الكلب ، كنا ننتظر هذه الغلطة ، هيا إلى الخارج جميعا .

وأوثقونا صفا متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح فما كان بقادر على الوقوف ، وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك

بعد أن طحنه بهراوته طحنا ، ولم يقم الرجل بل كسرت ذراعه فى هذ العلقة ، أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئا جديدا ، لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التى مزقها الزجاج الدقيق المتناثر فى الفناء وأوسعونا ضربا ولكما ورفسا ثم جعلونا نلحس سلالم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط والهراوات ونهش الكلاب .

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا ، ومنا من صاحبه ورم فى لسانه حتى وقتنا هذا .

أما الرجل الذى تركناه جريحا يعانى من الصديد الذى ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئا عجيبا .

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه عله يطفىء نارها المستعرة ، ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ صراخا عالياً وحاولنا رغم كل ماحدث أن نهدئه وأن نمنعه مما كان يفعل .

ووجدت دموعى تنساب على خدى دون صوت ، كان قلبى يتمزق ، وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة ، ولم يفكر أحد منا فى استدعاء الحرس لإسعاف هذا الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طوال النهار .

وفى الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صار الرجل ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته ، ويطلب منهم أن يسامحوه ويغفروا له ذنوبا لانعرفها ، ثم اختلج جسده وأسلم الروح .

وفى الصباح وجدنا فى وجهه تعبيرا هادئا مطمئنا ، كأن الله قد غفر له .

بعد أن مات الرجل وعرف كل من فى المخزن أنه مات انفعل أحد الموجودين وبكى بصوت مكتوم ، ثم ارتج المخزن بالبكاء ، وصلينا عليه ونحن فى أماكننا وهو غارق فى برازه وصديده ، وابتسامته الهادئة التى لم نرها إلا فى الصباح .

وكانت هذه الليلة هى الليلة الثانية فى السجن الحربى ، الليلة الثانية التى لم أذق فيها طعم النوم ، وإذا أضفنا الأربعة أيام التى قضيتها فى المحمصة بأبى زعبل فيكون مجموع أيام السهر ستة أيام كاملة ، ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم .

وفى هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى أشرب قدرا أكبر من البول الذى جمعناه فى أوعية المطاط طوال النهار ، وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا مافعلوه بالأمس ، فتكلم أحدنا فى صوت ضعيف :

ياأفندم ، فيه واحد ميت .

وأشار بيده إلى الجثة الهامدة وارتسمت على وجه الجندى ابتسامة وقحة :

– واحد فقط ياأولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجهنا من سيادة العميد .

أى إنسان هذا الذى يتحدث عنه الجندى ؟

لاشك أنه ليس من البشر ، ألا يؤثر فيه منظر الموت الجليل ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يتضاحكان ويتغامزان كأنهما يحملان . ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان أبخس الأشياء وأرخصها قيمة .

وذهب الرجل المسكين الذى لم نعرف عنه شيئا سوى أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة قبل أن يموت ، لقد ذهب الرجل إلى مكان آخر خلف الحياة إلى

الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان .

وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمور فى نفسى .

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ ما العزة وما الذل ؟ ما الحب ؟ ما البغض ؟ ما الجوع ؟ ما الخوف ؟ كل هذا ليس سوى كلمات ، وما أنا ؟ لست سوى كلمة ، وما الألم ؟ أيضا كلمة ، وما الفكرة ؟ وما الصنم ؟ كلمات ، الحق والباطل ، ولكن ، تختلف الكلمات وتتباين ، هناك كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، وهناك الكلمة الخالدة ، طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والحياة التى نعيش فيها ويصنعنا بعضها ونصنع نحن البعض الآخر ، ليس هذا كله إلا صراعا بين الكلمات ، الكلمات الخبيثة ، والكلمات الطيبة ، ونحن بين هذه وتلك فى علو وانخفاض ، ولا يتربع فوق عرش الحياة فى النهاية – التى لايمكن قياسها بمقاييس البشر – إلا أصحاب الكلمة العليا ، الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد الدفاق اللامتناهى مادام للوجود حس أو شعور .

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا المخزن وبعضنا ناله ، قضيت فى هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى الزنازين ، ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته فى السجن الحربى ، فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وفى كل وقت ، وقد ترك هذا العام فى نفسى أثرا لا يمكن أن يمحى أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه .

وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الأيام المفزعة ، فكم من الكلمات لا تعنى شيئا بالنسبة لكثير من الناس ، ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا

هناك ، فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس ويكون فى نفوسهم معنى لايختلفون عليه .

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يحكم فيها الحراس علينا غلق باب المخزن ، رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصديد ، الموجودة فى كل مكان ورائحة كريهة أخرى تهب من الأجواف التى أنتنها الجوع والسغب وقذارة الأسنان ، وكان صوت المزلاج عندما يتحرك إيذانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل إلى قوة انفعاله وتمتلىء عروقه بالأدرينالين تحفزا واستعدادا لمواجهة الخطر ، ويتمثل لنا أسوأ الأوقات فى لحظة تسليم الطعام الضئيل الكمية ، القذر الصناعة ، لأنهم ينتهزون هذه الفرص فيوسعوننا ضربا ولكما وأذى .

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة ، لحظة استدعائه إلى التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيبا ، هناك من مات فى انتظار هذه اللحظة ، لم يستطع قلبه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف ، فلم يكن أمامه غير الموت .

الفصل العاشر

الزنزانـــة ٢١٠
فى انتظار التحقيـق

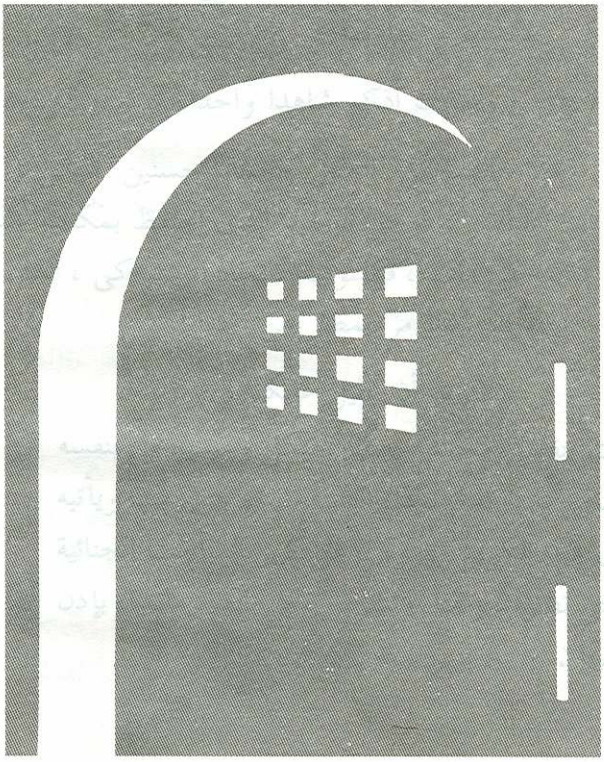

كنت أعيش هذه الأيام فى انشغال شديد ، دائب التفكير فى السبب الذى من أجله جاءوا بى إلى السجن الحربى ، وكان ظنى أنه لايذهب إلى هناك إلا من كان ضالعا فى المؤامرة التى تكلموا عنها ، وكنت أيضا دائب التفكير فى الكلمات التى تفوه بها ضابط المباحث أمامى فى أبى زعبل والتى لم أفهم عنها شيئا لمدة طويلة بعد ذلك ، وكنت أفكر فى العذاب الأسطورى الذى ينتظرنى فى التحقيق الذى لم يتم بعد ، وكنت أحاول أن أتخيل كيف سيسير التحقيق ، وكيف يمكننى أن أبتدع طريقة فى حديثى مع الضابط المحقق أستطيع أن أخلص بها من عذابه ، وكنت أفكر فى الظلم الذى يفرد جناحيه على سماء مصر ، وكنت أفكر فى هذه الأجهزة القادرة المتسلطة التى تفعل مابدا لها دون وازع من دين أو ضمير ، وكم سألت نفسى ، هل يعرف عبد الناصر مايدور فى أروقة السجون وظلام الزنازين ؟ وكانت الإجابة نعم يعرف والأدلة على ذلك كثيرة والشواهد متعددة لانستطيع تجاهلها .

وسوف أذكر شاهدا واحدا .

الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل ، صديق عبد الناصر ، الرجل الوحيد الذى احتفظ بمكانته عالية مع الزعيم حتى مات ، فيلسوف الاتحاد الاشتراكى ، الذى شارك بفكره بكثير مما مر بمصر من أحداث .

لاأريد أن أطيل عليكم .

لقد رأيت بنفسى محمد حسنين هيكل وهو يدخل بنفسه إلى فناء السجن بسيارته السوداء الفارهة ، ثم ينزل منها ويأتيه سعد زغلول عبد الكريم مهرولا وهو كبير المباحث الجنائية العسكرية التى تضرب وتقتل وتشرد وتفعل بالعباد ماتشاء بإذن من ؟ ما علينا .

دخل الصحفى الكبير وجوقات التعذيب تعزف لحنها الصاخب اللاإنسانى ، السياط تعوى والبشر يصرخون ، ووقف الصحفى الكبير فى ساحة السجن ورأى بعينه وسمع بأذنه أكثر من نصف ساعة حتى جاءوه بواحد من أصحابه الذى أراد له الله أن ينجو من العذاب ، وأخذه بسيارته

وانصرف ، فإن كان الزعيم لايعرف شيئا فلا ريب أن الصحفى قد أخبره ، وإن كان الصحفى لم يخبره بشىء ، والزعيم لايدرى بما هو كائن فى سجون مصر ومعتقلاتها فالأمر أعظم وأدهى ، ونعود من هذا الاستطراد إلى سياق القصة حيث كنا فى المخزن رقم (٦) الرهيب .

فى صباح يوم (١٦) سبتمبر (١٩٦٥) وكانت الطاحونة الرهيبة تدور دورانا مخيفا مفزعا كشأنها كل يوم فتح الباب علينا كالعادة ، وأثناء الركل والشتم والإيذاء ، أخرجونا وصفونا صفوفا أمام المخزن ، وجاء عريف وفى يده دفتر كبير ، وكان غلاما فى الثامنة عشرة من عمره على أكثر تقدير ، وجلس على كرسى يحمله له أحد الجنود ووضعه له باحترام شديد ، وجلس العريف فى استعلاء وتكبر وزهو ، وهو ليس أكثر من عريف ، ورغم هذا ففى نفسه كل هذه الطاقة على التكبر والتجبر ! كان هذا العريف يتصرف ككبار جنرالات الحرب الألمان النازيين الذين كنا نقرأ عنهم ونسمع بهم ، على أية حال لم يكن هذا غريبا فى شىء ، فقد كان فى سلطة هذا العريف أن يفعل مايشاء دون مساعدة من أحد فى الجمع الذى يقف أمامه وفيهم ضباط فى الجيش ، فكان من المنطق أن تتوهج فى ذاته تلك الجذوة الشيطانية المدمرة .

وبعد أن جلد بعض الأشخاص الواقفين بالسياط لغير ماسبب سوى أن يؤكد فى ذواتنا أنه على كل شىء قدير ، وأن سلطانه لاحدود له ولاغاية لمنتهاه ، صار ينادى الأسماء ويرسلها كيفما اتفق إلى الزنازين المختصة فى هذا البناء الشيطانى ، وكان يدعو المعتقل باسمه ثم يذكر له رقم الزنزانة فينتقل إليها الشخص المراد كالريح فى هبوبها والويل له إذا تقاعس أو تردد أو كانت رجله مصابة لايقوى على الجرى بها ، فى هذه الحالة ينال عذابا رهيبا موجعا بالغ الألم ، وكان عليه أن يستدل على مكان الزنزانة من الأرقام المبينة أعلى الزنازين باللون الأسود ، ثم نادانى العريف ومعى اثنان من الإخوة ، وكان صوته يزمجر بين صفعات الجند والسياط الهاوية على أى مكان فى جسدى غير آبهة لشىء ، الزنزانة (٢١٠) وانطلقت كغيرى فى سرعة البرق ولم أتبين من كان يجرى معى ، ولكن السياط واللكمات تقابلنى فى كل شبر من فناء السجن المربع ، وعلى الدرج الطويل المؤدى إلى الدور الثالث حيث كانت الزنزانة المقصودة كان يقبع العذاب على كل درجة من درجاته ممثلا فى جندى قمىء الشكل عفن الرائحة يطل الشر من بين عينيه وتتجمع الإهانة فى قبضته سواء كانت خاوية أو ممسكة بسوط طويل أسود ممتلىء باللعنة .

وعلى باب الزنزانة كان يقف (سامبو) كأنه الشيطان ، ومن دخل السجن الحربى ولايعرف (سامبو) ؟ لقد كان أشهر من الكلب (عنتر) وكان من معالم السجن فى تلك الأيام ، لايصفع على الوجه إلا بكلتا يديه ، فيصيبك بدوار طوال اليوم. وبعد أن قال لنا أشياء كثيرة لاأذكرها أدخلنا الزنزانة وأحكم إغلاقها علينا ووقفنا ثلاثتنا لاهثين من فرط الضرب والعدو والانفعال والسعادة أيضا ، فقد كنا نحلم أثناء

وجودنا بالمخزن باللحظة الجميلة التى سيصرفوننا فيها إلى الزنازين حيث نتخفف من كمية العذاب ونكون بمنأى عن الجند ، هكذا كان الظن .

وحقق الله لنا الحلم ، وها نحن أولاء فى زنزانة مقفلة فى الدور الثالث حيث لايسمع صوتنا أحد ولايشعر بنا مخلوق ، ونظر كل واحد منا إلى زميله ، وانفجرنا فى ضحك جنونى ، وبعد لحظات اكتشفنا أن هناك شخصا رابعا فى الزنزانة وماكدت أتفرس فى وجهه البرىء حتى تبينت أنه الطبيب الذى التقيت به قبل مدة فى المحمصة بمعتقل أبى زعبل ، ووجدتنى أقبل عليه بلهفة .

– أنت فلان ؟

– نعم . وأنت فلان ؟

– نعم .

وعدنا إلى الضحك من جديد ، وكانت سعادة هذا الصديق فاروق عباس كبيرة فقد علمنا منه أنه ظل فى الزنزانة وحيدا لمدة طويلة حتى كاد يجن من الوحدة ، وكانت الزنزانة عارية من أى شىء عدا وعاء مطاطى للتبول ، وكان الطبيب يرتدى بنطلونا وقميصا صيفيا خفيفا ، وكذلك كان كل منا ، وبهذه الملابس عشنا الصيف والشتاء ، بلا غطاء فى زنزانة كانت تعوى بها الريح فى الليالى الباردة كأنها الذئاب الجائعة .

وفى لحظات نسينا التحقيق والاعتقال والتعذيب وكل شىء ، وانطلقنا فى حديث طويل تناولنا فيه كل شىء ، كان حديثنا مضحكا مليئا بالفكاهة والطرافة ، وصرنا نضحك على كثير مما مر بنا من أحداث ، وأصبح كل واحد كأنه يعرف الآخر لسنوات طويلة مضت ، رغم أن معرفتنا وشيكة الحدوث ، كنا كراكبى سفينة تحطمت على صخرة ونجا

منها أربعة سباحة إلى شاطىء قريب ، وفى السفينة ترك كل واحد منا هويته وشخصه ، وذهب إلى الشاطىء المهجور إلا بقلبه وعقله ولاشىء آخر ، فقد الماضى ولاأمل له فى المستقبل ، هكذا كان حالنا ، وظل كذلك لفترة طويلة نعيش مجردين من أية أشياء أو متعلقات ، كل واحد يواجه الآخرين بذاته فقط مجردا من أى شىء آخر ، كان الأمر على هذه الصورة ببساطة تامة .

وقد يكون مفيدا أن أقول شيئا عن سكان الزنزانة (٢١٠).

الطبيب (فاروق عباس) شاب فى الخامسة والعشرين ، نشأ فى بيئة متوسطة الحال أبوه أحد رجال التعليم الابتدائى يعتنق كل أفكار البيئة العصرية المتوسطة من حرص على الحياة ، واحترام الحكومة أيا كان لونها واتجاهها وعدم مناوأة السلطة على أى حال من الأحوال ومحاولة ادخار قدر من المال يكفى لليالى السوداء التى لابد وأن تأتى فى المستقبل البعيد المليء بالمخاوف والتكهنات .

وباختصار وصل (فاروق) إلى كلية الطب وكان ذلك مطمحا اجتماعيا ذا أهمية خاصة لأسرته ، وتضافرت جهود الأب حتى أتم الابن دراسته فى الكلية بنجاح ، ثم عمل فاروق طبيبا بالامتياز فى مستشفى الدمرداش ، وفى آخر يوم له بالمستشفى وعندما كان يستعد لأن يكون نائبا تم القبض عليه ، وتعرف وهو طالب بيحيى حسين فى أحد معسكرات الجامعة التى كانت تقام بالمصايف فى رأس البر أيام كان يحيى حسين طالبا بكلية الزراعة ، وتصادقا وفرقت بينهما الأيام ، ثم التقيا على قدر بعد ذلك ، وكان يحيى قد صار طيارا بشركة مصر للطيران و فاروق فى السنوات الأخيرة من دراسته فى الطب ، وبطريقة غامضة عرض يحيى حسين عليه

الاشتراك فى نشاط دينى وسياسى ورفض صاحبنا لأن معنى ذلك مناوأة السلطة ومناصبتها العداء وهو الأمر الذى جهد أبوه فى تخويفه منه وإبعاده عنه .

وفى يوم قائظ من أيام أغسطس سنة (١٩٦٥) ذهب إليه يحيى حسين فى ساعة متأخرة وطلب منه خدمة خاصة جدا ، وبطريقة غامضة أفهمه المهمة التى عليه أن يؤديها ، فقد أعطاه رقما تلفونيا وأوصاه أن يتصل بصاحبه وأن يخبره عبارة واحدة (الجماعة اتمسكت) .

وعندما حاول أن يفهم منه طبيعة هذه المهمة ومعنى هذه العبارة وعده يحيى أن يخبره فى مرة أخرى بالتفاصيل لأنه منشغل تماما ، وذهب يحيى ولم يعد ، ففى هذه الليلة كان على موعد مع الهرب من البلاد ، وفى الطائرة المتجهة إلى (أديس أبابا) نزل يحيى بمطار الخرطوم ولم يعد ثانية .

وكان هناك زميل ليحيى يعمل طيارا معه فى نفس الشركة وكان شريكه فى أفكاره ونشاطه السياسى ، وكان هذا الزميل واسمه (ضياء) صديقا أيضا لصاحبنا (فاروق) ويعرف الكثير عنه ، ويعرف أن يحيى حسين كان يحاول ضمه إلى جماعتهم ولكنه أيضا كان يعرف أن هذه المجهودات باءت بالفشل ، وتحت الضغوط النفسية العنيفة التى تعرض لها ضياء صار يتكلم .

وفجأة وجد فاروق عباس نفسه فى بدروم المباحث العامة بميدان لاظوغلى بالقاهرة حيث الزنزانة المخيفة المبطنة بالمطاط وهو يسأل عن علاقته بالإخوان ، وعلى المسكين أن يتحمل العذاب وما كان له أن يقول شيئا ، فهو لايعرف شيئا بطبيعة الحال .

وانتقل من المباحث العامة إلى أبى زعبل ، وهناك تلقى

صنوفا عديدة من العذاب والجلد بالسياط ، ولعلكم أصبحتم تعلمون أن العذاب شيء والجلد والسياط شيء آخر ، وعليه أن ينقذ نفسه من جهنم كما فعل الآخرون ، والطريق الوحيد المنبسط لهذه النجاة أن يكذب وأن يخترع أقصوصة تجعلهم ينفضون عنه حتى يلتقط أنفاسه ، وادعى أنه عضو بالإخوان ، وأنه يصنع القنابل لهم ، وعندما سئل عن طريقة صناعتها أجاب بأنه يخلط مقدارا من الأثير ومقدارا من الكيروسين مثله ثم جزءاً ثالثا من الكلور .

وطيرت أسلاك التلفونات خبر القبض على الإرهابى فاروق ، ونشرت اعترافاته بالعناوين الكبيرة فى الصفحات الأولى من الصحف اليومية ، وضحك خبراء المفرقعات كثيرا عندما بلغهم هذا الكلام .

وفى جريدة الجمهورية العدد (٤٢٨٢) بتاريخ ١١ سبتمبر سنة (١٩٦٥) كان العنوان فى الصفحة الأولى :

أسرار الجهاز السرى للإخوان

كشف أحد الإرهابيين أسرار الجهاز السرى للإخوان ، أعلن أن سيد قطب كان يرأس الجهاز ومعه لجنة خماسية تضم إسماعيل الهضيبى وإحدى السيدات تدعى (الحاجة) قال إن أحدا من الإخوان لايعرف شيئا عن (الحاجة) .

اعترف الإرهابى بجرائم الإخوان ومؤامراتهم لقلب نظام الحكم وأساليبهم لتضليل الشباب ومحاولتهم ضم عناصر جديدة لتنظيماتهم الإرهابية ، أدلى بهذه الاعترافات طبيب شاب ضللت به جماعة الإرهاب ، قال إن خطة الإرهابيين كانت تتضمن نسف محطات الكهرباء حتى يعيش الناس فى

ظلام ، اعترف بأن الإخوان كانوا يستغلون الدين لتجنيد الشباب وتضليلهم ، قال إن العملية التى وضع نفسه فيها لم يفهمها إلا بعد فوات الأوان ولكنه لم يستطع الخروج منها ، كشف الطبيب فى اعترافاته المثيرة خطط الإخوان لحظة بلحظة عام (١٩٥٩) .

هذا ماقالته الصحيفة فى صدر صفحتها الأولى ، والرأى أن كاتب هذه السطور التى قدمت اعترافات الطبيب كان يضلل الناس ويخدعهم ويجب أن يحاسب الآن فى عهد الحرية الذى تعيشه مصر .

ماعلينا نعود إلى نص الإعترافات الذى نشرته الصحيفة :

(فى صيف عام ١٩٥٩) كنت فى رحلة فى مصيف البر

وتقابلت مع يحيى أحمد حسين وكان وقتها طالبا فى كلية الزراعة فى جامعة عين شمس وكنت طالبا فى جامعة عين شمس أيضا ، واتفقنا على الصلاة وعلى جمع الكلمة على الصلاة جماعة ، ثم انتهى المعسكر وتفرقنا وكان معنا طالب اسمه مصطفى الرشيدى زميل يحيى بالكلية وقتها ، وبعد عام ونصف تقريبا قابلت مصطفى صدفة فى العتبة فسألته عن يحيى فذكر أنه انتهى من دراسته فى كلية الزراعة والتحق بمعهد للطيران وسيصبح طيارا قريبا فطلبت منه أن يعطينى رقم تليفون يحيى حسين لأنى فى حاجة إلى سماعة طبية غير موجودة بمصر وهو يستطيع أن يحصل عليها من الخارج فأعطانى الرقم (٦٥٠٥٠) فاتصلت بيحيى وكانت أول مرة بعد افتراقنا فى المعسكر ، وتقابلنا أمام سينما روكسى بمصر الجديدة وكانت أول مرة أتقابل معه فيها بعد المعسكر ليلة العيد الصغير عام ٦١ وسرنا من روكسى حتى العباسية وشرح لى أثناء ذلك كيف يكون الإنسان مسلما حقيقة يجب أن يقرأ

تفصيلات القرآن ولم يذكر لى أسماء كتب فى وقتها ولكنه قال لى ذلك : سأذكر لك كتبا تنمى ثقافتك الدينية فى الكتب وغير ذلك ثم ذكرت له أننى بحاجة إلى سماعة فأمهلنى بعض الوقت لعدم وجود النقود الأجنبية لكى يشترى بها ، وطلب منى أن أكون على علاقة دائمة معه بالتلفون وتكررت الاتصالات التليفونية بينى وبينه .

وفى يوم جمعة ذهبت إليه ، وبعد الصلاة ذهبنا إلى شقة قال لى : إنها شقة أحد الأصدقاء اسمه محمد الغنام وكان يصلى معنا وكان هناك محمد الغنام وشخص اسمه أحمد رائف والدكتور محمد أمين (صيدلى) مندوب دعاية شركة سيد للأدوية وكنت قد رأيته قبل ذلك فى الشركة عند ترددى عليها من أجل الدعاية ورأيته مرة أخرى عند يحيى فى المنزل وقال لى عنوانه وأذكر أنه فى حارة لاأذكر اسمها عند مدرسة السبتية منزل رقم (٥) الدور الثانى .

ثم ذهبت إلى يحيى مرة فأخذ يناقشنى فى الدين وذكر لى اسم الدكتور (علاء) فقلت له لاأتذكره فقال يحيى بأنه شقيق زميل له اسمه ضياء ، فقلت له : لاأذكر هذا الطبيب قال لى : إن أخاه رجل طيب جدا ويعرف ربنا ويقرأ فى التفسيرات القرآنية على مستوى كبير ، وقال لى إن شاء الله ستقابله يوما ما ، وذات يوم قال لى يحيى : ما رأيك فى القراءة لتفسير القرآن فى كتاب (فى ظلال القرآن) فقلت له : ليس لدى مانع ، قال لى اشتر الكتاب من مكتبة وهبة واقرأ منه وسأخبرك الخطوة الثانية للقراءة والتثقيف الدينى .

وبعد ذلك طلب منى يحيى أن نقرأ سويا وأن أبحث عن أفراد معى فى المستشفى متدينين يمكن الاعتماد عليهم فى القراءة بجد فى هذه الكتب فذكرت له بعد بحث اسم الدكتور مجدى ، قال لى : هل يمكن أن يصمد فى القراءة

كثيرا؟ قلت له : نعم فهو كثير المعلومات فى ناحية الدين ، فقال : إذن على بركة الله ، وفى يوم جاءنى يحيى فى المنزل وقال لى : إن هناك شخصا يدعى على يسكن فى شارع طوسون بشبرا وهو متدين هو الآخر ، ويعرف ربه جيدا ويريد أن يعرفك ، فهل عندك مانع قلت له : لا ، قال : إنه مريض الآن فى المنزل فهل عندك مانع من زيارته ، قلت : لا ، قال إذن هيا بنا .

وذهبت إلى منزله ، وقالوا لنا : انتظروه فقد ذهب إلى الطبيب برهة وسيعود حالا وانتظرناه ساعة تقريبا ولم يحضر . ثم ترك له يحيى كيسا به (أبو فروة) وانصرفنا .

وفى مرة أخرى قابلت يحيى وقال لى : مارأيك فى أن تنضم إلينا أنا وضياء وعلى الذى حدثتك عنه واسماعيل الهضيبى فى أشياء أكثر من القراءة التى كنت مكلفا بها . قلت له : وماهى الخطوة التالية ، قال : أن نثبت الإسلام على الأرض ، فقلت كيف ؟ قال : لايمكن إلا بالقوة لنغير النظام الحالى ، وجاء ضياء وتكلمنا عن بعض المعلومات فى الكتب التى قرأها وفى نفس الموضوع الذى ينتهى إلى الانقلاب .

وقلت له : ولكن هذا قد يعرضنا للاعتقال والتعذيب . قال : هل إيمانك ليس بالقوة الكافية بأن تبيع نفسك فى سبيل الله ؟ قلت له:لا . قال : لابد أن تقوى إيمانك وحتى نفهم الآية (**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**) . وعندها ستصبح قادرا على تحمل أعباء الجهاد فى سبيل الله . قلت له : وإذا لم أستطع ، قال : أنت تعمل كطبيب تداوى بعض الجرحى إذا حصل اشتباك ، قلت له : قد يؤدى هذا إلى اشتباك وتعذيب وأنا لاأتحمل ذلك ، قال : اذن أطلب من الجماعة أن تبحث عن طبيب من الأرياف ، قلت له : نعم .

وبعدها بأسبوع حضر إلى يحيى وأخذنى إلى على لكى أتعرف عليه فإذا به يقول لى إن يحيى قد أبلغك بالترتيب قلت له : نعم . قال : إذن اذا كنت تريد أن تعمل على رفعة الإسلام وثباته فى الأرض فعليك بالجهاد فى سبيل الله ولاسبيل إلا سبيل الجهاد ، قلت له : ولكن الجهاد قد يعرض الإنسان للتعذيب والسجن فى حين أننا نسير على مبادىء الإسلام ، قال لى : لا فالبنوك ربا ، والسيدات العاريات فى الطرقات زنا ، قلت له : أبدا أنا وأنت نكون رأسمال البنك فلا يوجد ربا فى الموضوع والسيدات العاريات هى أختى وأختك فيمكن أن نصلح من شأن أسرتنا ، قال : لا .

لا يمكن إلا من الرأس فلا بد أن نكون الرأس ،وقال لى : هذا لن يكون بانقلاب عسكرى كما نتوقع ولكن سيكون عن طريق أن نشل حركة المطارات والسكك الحديدية لا غير

وبهذا نكون لم نقتل أحدا ، وأن لنا سواعد قوية فى كل مكان ، فلا تخف من شىء وستكون مهمتك أن تحضر لنا بعض الزجاجات الناسفة المكونة من مادة الأثير والكلور والكيروسين الموجودة بالمستشفى ولن نحتاج إلى أكثر منها والنسب تستطيع أن تأخذها من الدكتور عزمى زميلك بالمستشفى أو منى .

ملحوظة : كان يحيى قد أخبرنى قبل ذلك أن هناك دكتورا اسمه عزمى بالمستشفى وهو على علم بكل شىء وقال لى اتصل به وكلمه ، فاتصلت به وقلت له : يحيى يسلم عليك فقال لى : أولا أنا لاأعلم شخصا اسمه يحيى حسين ، وعندما قلت له الذى سيحضر لك سماعة من الخارج عن طريق خالتك قال لى : سلم عليه وأنا أعرفه ، ثم قال لى على : إن أسرتك ستضم أنت ومجدى الذى تقرأ معه وأنا ذكرت له أن مجدى حديث بالمستشفى وهذا يأخذ كل وقته

وأن له أما مريضة وهو يعودها ، قال إذن فليجعل اللقاء بينى وبينك أنت ولاداعى لمعرفة مجدى بى وكفى أن نبلغه ببعض المعلومات البسيطة أولا ثم نتدرج معه فى المعلومات إلى أن يعلم ، فلت له : إذن أسرتنا ستكون مكونة منى ومنك ومجدى عن بعد ، قال : نعم ، قلت له : وكيف سيعلم مجدى بالتكوين ؟ قال عن طريق يحيى وطلبت من يحيى بطارية تشحن بالكهرباء ولما علم مجدى بأنه سيحضرها لى طلب منى أن أطلب له واحدة وبعد إحضارها قال مجدى : يجب أن نذهب لنشكره على البطارية ، وأن نقرأ فى الكتب سويا ، فذهبنا إليه فى المنزل وشرح له يحيى طريقة الدراسة وهدفها ، ثم طلب منى أن يتصل بى لكى نقرأ أكثر وأخبره بأشياء أخرى .

ثم قال لى مجدى : أنا عندى إجازة وفاروق عنده إجازة وسنذهب إلى بلطيم لكى نقضى بعض الأيام هناك فقال : أنا أستطيع أن آخذ إجازة وأحضر معكم ثم اتفقنا وسافرنا فى اليوم التالى وبعد ثلاثة أيام عدنا وفى الطريق نزل مجدى إلى بلدتهم وواصلنا أنا ويحيى إلى القاهرة وفى السيارة طلب منى يحيى أن نحدد مواعيد اللقاء بيننا لكى نواصل التعليمات فقلت له : فى أى مكان مثلا عندى لأننى متزوج وأنتم لستم متزوجين وإذا لم تتوافر اللقاءات عندى فلتكن فى مسجد السيدة زينب بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة ، ولكن هذه المواعيد لم تتوافق ومواعيد سفر يحيى ومواعيد المستشفى فلم نتقابل .

وفى يوم جاءنى يحيى الساعة (٩) مساء ومعه ضياء وقال لى إنهماء اتفقا على رحلة من حلوان إلى القاهرة مشيا على الأقدام فقلت له : هل هذه رياضة ؟ فقال : إنها تعليمات من الرياسة فسألته ومن هذه الرياسة ؟ قال سيد قطب رئيس ومعه

لجنة خماسية من أفراد لانعلمهم قد تسمع عنهم فى يوم من الأيام ، وستتبع هذه الرحلة رحلة أخرى من القاهرة إلى بنها على الأقدام أيضا . وقال يحيى إنه سيسكن فى منزل الحاجة هو وضياء وهى عاملة جمعية الشابات المسلمات ، وزوجته عضو بها وزوجة على وبنت أخت سيد قطب وهؤلاء الزوجات سيكن حلقة اتصال مع الأسر حتى إذا أمسكت إحدى الأسر تكون الزوجات هن المسئولات عن الاتصال بالأسر الباقية .

وذات يوم ذهبت مع يحيى إلى منزل قال لى إنه منزل محمود الغنام ورأيت فيه يحيى وضياء ومحمد الغنام وأحد الأشخاص قالوا إنه مدرب المصارعة اليابانية وكان يعلمهم وهم ممسكون بخناجر وكيفية تفاديها والوقوع من الوضع واقفا بدون أن تحدث إصابات ، ولكنه قال لى إنك لاتصلح لمثل هذه الرياضة .

ثم جاء إلى يحيى منذ خمسة عشر يوما الساعة الحادية عشرة مساء وقال لى : زوجتى فى (تاكس) تحت تنتظرنى . ونفذ ماأقوله لك بدقة ، اطلب الرقم (٨٩٦٤٦٠) واطلب شخصا اسمه فاروق وإذا رد عليك فقل له : أنا عبيد الجماعة اتمسكت ، نفذ وإذا لم يرد عليك فلا تقل شيئا ، ففعلت ذلك ، وفى صباح اليوم التالى لم أجد فاروقا هذا ، وقيل لى إنه ذهب إلى بور سعيد فسألت عن موعد عودته فقالوا لا نعلم ، وقال لى شخص أخبرنى أنه زوج أخته إذا كنت تعلم مكانه أخبره أن والدته فى حالة خطرة فأخبرته أنى لاأعلم مكانه .

ويوم الأربعاء الماضى جاءنى ضياء فى المستشفى وقال لى إن يحيى اتصل بالرقم (٨٩٦٤٦٠) وقال لهم : إذا حضر

فاروق يتصل بى فى الرقم (٦٥٠٥٠) فإذا بضابط مباحث يطلبه بالمنزل ولم يجد غير حماه ولم يجد يحيى وفى هذه الأثناء كان يحيى قد مر على ضياء وأخذ دولارات كانت لديه ، وقال إنه سيذهب إلى الخرطوم ثم السعودية ، ثم قابلت مجدى يوم الاثنين الماضى وذكرت له أن جماعة كانت ستعمل انقلابا اتمسكت عن آخرها وأنه أحد أفراد هذه الجماعة التى طلبت منى فى يوم أن أكون مشتركا فرفضت ، ثم طلبوا منى أن أكون طبيبا أعالج الجرحى إذا حدث اشتباك ولكنى خشيت ولم أوافق .

وقد أخذت (تركيبة) من الزجاجات من عزمى ، قال لى ثلث كلور وثلث إثير وثلث جاز ، وتوضع فى زجاجات حمراء اللون صغيرة (١) وقد أخذها من (على) ولا أعلم إلى أين ذهب بها كما أننى سمعت بعض الأسماء من يحيى مثل الحاجة وابن أخيها وكابتن سعد رئيسه بالعمل وكيف أنه أقنعه بفكرة البيع لله ، وأحمد رائف الذى رأيته مرة ، وقد أخبرنى يحيى أنه ضمن أعضاء اللجنة الخماسية وإسماعيل الهضيبى والحاجة التى لاأعرف بيانات عنها ، وأعرف أن يحيى كان سيسكن عندها .

فاروق عباس

١٩٦٥/٩/٢

(١) ولماذا لاتوضع فى زجاجات خضراء أو صفراء أو زجاجات برتقالية اللون ؟ « المؤلف »

انتهت اعترافات صاحبنا الطبيب فاروق عباس .

سوف أدع هذه الاعترافات بين يدى القارىء الكريم ليقرأها مرة بعد مرة ولن أعلق عليها بشىء ، سأدع القارىء يستنبط منها كل ماأريد أن أقول ، ولكنى أريد أن أقول له شيئا بالغ الأهمية ، هذا الكلام المكتوب والذى قرأته منذ لحظات قدم بموجبه أناس إلى محكمة أمن الدولة العليا وصدرت ضدهم أحكام بالغة القسوة ، فمثلا هذه القصة الركيكة التى قرأناها فى الاعترافات ، هل تدرى ماذا حدث لأبطالها ؟ أتدرى ماهو مصير الأسماء التى ذكرت فيها ؟ أنا أخبرك :

١ – نفذ حكم الإعدام فى واحد .

٢ – خفف حكم الإعدام عن واحد إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .

٣ – حكم على واحد بالأشغال الشاقة المؤبدة .

٤ – حكم على واحد بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما .

٥ – حكم على سيدة بالأشغال الشاقة المؤبدة .

٦ – حكم على آنسة أخرى بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات .

٧ – حكم على واحد بالأشغال الشاقة المؤبدة ثم اغتيل وهو ينفذ الحكم .

٨ – ثم حكم على واحد بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .

وقضى الباقون سنوات بلغت السبع فى المعتقل .

أرجو أن تعيد قراءة الاعترافات ثم تتأمل فى الأحكام ، وبعد أن تنتهى من تأملك أرجو منك أن تعيد التأمل من جديد .

استطراد لامندوحة عنه .

بينما أقلب صفحات الصحيفة لأنقل منها هذه الاعترافات طالعنى عنوان جانبى بها يقول :

(رأى الإسلام فى مؤامرة الإجرام)

أذاع شيخ الأزهر أمس بيانا أوضح فيه رأى الإسلام فى مؤامرات الإجرام أعلن أن أعداء الإسلام حاولوا – حين عز عليهم الوقوف أمامه – حرب الإسلام باسم الإسلام فاصطنعوا الأغرار وأمدوهم بإمكانيات الفتك وأدوات التدمير ، ولكن الله كشف أمرهم ليظل الإسلام أكرم من أن يتجر به .

وقال شيخ الأزهر فى بيانه :

أيها المسلمون ، إن الأزهر الذى عاش عمره الطويل لفقه الإسلام والتعريف به ودراسة القرآن والاستمداد منه ، وورود الحديث الشريف والصدور عنه قد شرفه الله بثقة المسلمين جميعا فيه فائتمنوه على عقائدهم وحكموه فى كل مايعن لهم من أقضية الحياة ومحدثات العصور ، ولقد كرم المسلمون شرف مهمته وإخلاص نيته فضموه إلى مقدسات الإسلام .

وإن الله الذى يعلم ماتضطلع به مصر من مسئوليات ومايتحمله قادتها من تبعات قد شاء أن يدلها على أوكار الخيانة وكهوف الغدر ومنظمات الدمار حيث تواجه مرحلة انطلاقها بعروبة موحدة الهدف إسلامية شريفة السلوك وإنسانية نبيلة المثل .

وإذا كان القائمون على أمر هذه المنظمات قد استطاعوا أن يشوهوا تعاليم الإسلام فى أفهام الناشئة واستطاعوا أن يحملوهم بالمغريات على تغيير حقائق الإسلام تغييرا ينقلها

إلى الضد منه ، وإلى النقيض من تعاليمه ، فإن الأزهر لايسعه إلا أن يصوب ضلالهم ويردهم إلى الحق من مبادىء القرآن الكريم والسنة المشرفة ، فالإسلام كما قال عنه الرسول – ﷺ – حين سأله جبريل عليه السلام – فقال يامحمد : أخبرنى عن الإسلام ، قال ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال جبريل : صدقت . ثم قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال جبريل : صدقت ، ثم قال : فأخبرنى عن الإحسان ، فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

هذا هو الإسلام كما بينه رسول الله فحين يشترط المتآمرون على الإسلام أن يكون المسلم منضما لجماعة خاصة تستهدف البغى وتدعو إلى التمرد فإنهم بذلك يدخلون على الإسلام ما ليس منه ويحاولون أن يجعلوا لمنظماتهم قداسة حتى يستولوا على صغار العقول وهواة التحكم والسلطة .

وإن الإسلام الذى يتجرون باسمه يصون حرمة المسلم فى دمه وماله وعرضه فقد قال رسول الله ﷺ : لايحل دم مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ، وصح عنه أيضا أنه قال فى حجة الوداع :أى يوم هذا ؟، قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت ثم قال:أليس يوم النحر ؟ قلنا: بلى يارسول الله ، قال: فإن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، ستلقون ربكم فيسألكم أعمالكم فلا ترجعن بعدى كفارا

يضرب بعضكم رقاب البعض ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض ما يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه ، ثم قال ألا هل بلغت ؟

وصح عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال من حمل علينا السلاح فليس منا ، وإذا ثبت فى اغتيال النفس الواحدة فما بالك باغتيال الجماعات البريئة وترويع الآمين؟ وإذا كان مال المسلم على المسلم حراما فما بالك بالاعتداء على المال العام والمصالح المشتركة والمرافق الحيوية التى يحيا بها المواطن وتعيش عليها الأمة ؟

وإنى لأعجب أشد العجب ممن يدعى الإسلام والغيرة عليه ، كيف يسوغ له أن يوالى أعداء الإسلام وأن يأخذ منهم مقومات الفتك بالمسلمين ويستعين بمالهم على إخوة له فى الدين ألا ساء مايدعون وبئس مايفترون ، ألم يقرءوا قول الله تعالى : - « **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** - » . ألم يقرع سمعهم قول الله تعالى : « **لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** - » ؟

أيها المسلمون - إن الاستعمار قد يئس أن يعيش بينكم وأن يتحكم فى أموركم وأن يمتص خيراتكم ولكنه دفع منكم نفرا ليهدموا مكاسبكم ويضعوا العراقيل فى سبيل نهضتكم فتنبهوا جيدا إلى كيد هؤلاء وتآمر هؤلاء حتى لاتنتكس ثورتكم وتعودوا إلى عهود التبعية والإقطاع والرأسمالية .

وإن الأزهر الشريف كلياته ومعاهده ووسائل إعلامه يلقنكم عقائد الدين كما أرادها الله صافية من تعكير الضالين

مستقيمة من التواء المبطلين تأخذ بيدكم إلى خير مجمع عليه وتنجيكم من شر غير مختلف فيه ، فسيروا على بركة الله راشدين مهديين وماتوفيقنا إلا بالله وهو يتولى الصالحين »

تعقيب على بيان كبير المشايخ :

فى الحقيقة ليس من السهل أن أناقش بيان ذلك المخلوق فى سطور قليلة فالأمر قد يحتاج إلى كتاب كبير لنعطى الأزهر مايستحقه من شرح وإطناب للحالة المزرية التى وصل إليها فى السنين الأخيرة .

ولكننا نترحم على شوقى وعلى محمد عبده ثم نقول :

كان حريا بحسن مأمون أن يحترم سنه وأن يحفظ مقامه ولايتردى فيصير بوقا فى يد عصابة مثل مافعل الجهال من الناس ، وكان عليه أن ينتظر دورة الزمن أو يراها بعين بصيرته – إن كانت له بصيرة – فيرى كيف يقضى فى مصر على النفاق والمنافقين ويحاسب قطاع الطرق عما اقترفوه ويودعون السجون على مافعلوه فى حق الوادعين الأبرياء من قتل وتشريد .

وهو قد اتهم الإخوان فى بيانه بعمالتهم للاستعمار ، أى استعمار هذا الذى تعنيه ياشيخ حسن مأمون ؟ الاستعمار الأمريكى أم الاستعمار السوفيتى ؟ أم تراك تقصد الاستعمار اليهودى ؟

ولن أقول أكثر من هذا فى هذه النقطة .

يا لضيعة شيخ الأزهر وشيوخه !

أين كانت نخوتك ياشيخ الأزهر عندما كانت طائراتنا المغيرة تدك قرى اليمن وتقتل الشيوخ والأطفال والنساء ؟ لاأظنك لم تسمع بهذا وإذا ادعيت فلن أصدقك ، فالشعب كله كان يعرف هذه الفظائع ولايملك غير السكوت وإلا ضرب بالنعال وألقى فى غياهب السجن ومنع عنه القوت وشردت أسره .. و .. و ..

ولاأظنك لم تسمع بما فعلته مراكز القوى بالإخوان فى السجون والمعتقلات ، أما كان أجدر بك أن تقول كلمة الله ، وأنت تعلم أكثر من غيرك أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، أم تراك نسيت هذا الحديث الشريف ؟

كان يجب على شيخ الأزهر أن يتحرى الدقة فى ذلك البيان الذى أذاعه وألقاه على الصحف وطيرته وكالات الأنباء .

كان عليه أن يخشى الله أولا وقبل كل شىء وأن يعرف أن الرازق هو الله وهو المحيى والمميت وليس آخر .

كان عليه أن يعمل حسابا للأزهر الذى بسببه يقبض راتبه الكبير ويركب سيارته الفارهة ويقبل الناس يده ، فلو ضاع الأزهر لضاعت من شيخه هذه المخصصات ، وكفى سببا لضياع الأزهر أن يبقى شيخه فى مكتبه ينتظر أوامر الضابط من المباحث العسكرية أو العامة بأن يلقى بيانا ما .

كان عليك أن تدافع عن المسلمين وتحرك الرأى العالمى وتطلب لهؤلاء المظلومين الفرصة فى محاكمة عادلة ، وترفع صوتك ولاتخشى فى الله لومة لائم ، وإن لم تستطع الوقوف فى هذا المقام الرفيع فلا أقل من السكوت عن الحق ياشيخ الأزهر ، أما أن تحرض وتعضد الطغيان وتنفخ فى صورة المفسدين وتشجعهم على قتل الناس وتشريدهم وتخمد

صيحة الحق إذا انطلقت فلعمرى ذلك هو الضلال البعيد .

طبعا أنت تعرف حقيقة مؤداها أن الشيوعيين قد تربعوا على عرش الفكر والصحافة وكل شيء فى مصر فترة من الزمن ، على أقل تقدير فى الفترة التى ألقى فيها الإخوان فى غياهب السجون .

ويوم صدور بيانك فى نفس الصحيفة جاء فى الصفحة الرابعة تحت عنوان : « إعتقال بدون مبرر فى جنوب أفريقيا » بلغ استهتار حكومة جنوب أفريقيا بالحريات العامة إلى درجة أنها اعتقلت أمس ايزال هايمان أول شخص يطبق عليه القانون الجديد »(تصور شيخ الأزهر ،شخص واحد فقط) الخاص بجواز اعتقال أى شخص لمدة ١٨ يوما لأى سبب تدعيه الحكومة (تأمل ياشيخ الأزهر ١٨ يوما وليس ١٨ سنة) تقول : إنه ماس بالأمن الداخلى ، وقد اعتقل فور الإفراج بعد وفاء مدة السجن وكانت التهمة الموجهة إليه هى أنه شيوعى (انظر ياشيخ الأزهر كيف يتضافر الشيوعيون فى أنحاء العالم) .

ولايهمنا بقية الخبر ، كل مايعنينا أنه نشر فى الصحيفة نفسها ، وفى اليوم نفسه الذى صدر فيه بيانك ، وماكان يليق بك أن تفعل ، فالخاسر والأحمق هو الذى يبيع آخرته بدنياه ، وأكثر منه خسارة وحمقا الذى يبيع آخرته بدنيا غيره ، كانت الدنيا تعج بالنفاق والمنافقين عام (١٩٦٥) وكان على الأزهر وشيخه أن يبتعدا عن هذه الحلبة ، ولو دفع الشيخ حياته فى سبيل ذلك فهو أكرم وأتقى وأقرب للتقوى .

* * *

كانت تلك قصة صديقنا الطبيب واستطردنا منها إلى حديث طويل أرجو المعذرة من القارىء،ولكنى لم أبعد كثيرا عن القصة .

بجانب قصة صديقنا هذا هناك قصة صديقنا الآخر (ع) صاحبنا فى الزنزانة وهى تبين لنا الوجه الآخر من الفساد .

لقد كنت فى التحقيق مع فاروق عباس عندما مزقت السياط جسده ، وعندما أكلت الكلاب قطعا من لحمه ، وظلت آثارها باقية حتى الآن ، وكان صوته يتعالى مع نباح الكلاب وعويل السياط وضحكات الضباط ، وفى النهاية اعترف بما لم يفعل .

أما (ع) فقد قص علينا قصته وعرفنا أنه قد أتى نتيجة لاعتراف على عشماوى عليه أنه كان عضوا فى تنظيم الإخوان ، وكان على عشماوى يكاد يكون (شاهد الملك) فى القضية فقد روى كل مايعرف حول التنظيم والاتصالات التى قام بها فقد كان أحد أعضاء اللجنة الخماسية لقيادة التنظيم .

وذهب (ع) إلى التحقيق واعترف اعترافا مفصلا بكل مايعرفه عن هذه الاتصالات ، وكان من المنتظر أن يحكم عليه بخمسة عشر عاما على الأقل فهذا كان يساوى اعترافه . ولكننا فوجئنا بالإفراج عنه بعد حوالى شهر من اعتقاله ، وعرفنا السر ، فقد كان له شقيق يعمل بالمخابرات وعلى علاقة وطيدة بشمس بدران .

وكان الشخص الرابع شابا فقيرا فى العقد الرابع من العمر وكان عضوا بجماعة الإخوان قبل حلها الأول ، عام (١٩٥٤)

وقدم للمحاكمة فى ذلك الوقت وصدر ضده حكم مع إيقاف التنفيذ ، ثم انقطعت صلته بعد أن أخرج من المعتقل (١٩٥٦) بكل أنواع النشاطات الدينية والسياسية ، وكان يعمل جاهدا أن يحسن أمور معيشته بأى وسيلة معقولة ، أو غير معقولة ، فرغم أنه لاعلاقة له بالفن إلا أنه حاول أن يكون ممثلا ، وجاهد كثيرا من أجل ذلك إلا أنه فشل فشلا ذريعا بدا لى من كلامه ، فقد كانت تنقصه الموهبة . ولم يستطع سوى الحصول على أدوار ثانوية لاتستغرق دقيقة أو أكثر قليلا على المسرح ، وكان فى معظم المسرحيات لايفتح فمه ، ببنت شفة .

وعاش بعد خروجه من المعتقل مايقرب من عشر سنوات من الكد الدائب والكفاح المستمر بلا نتيجة ، فكأنما كان يحرث فى بحر ، ونسى كل ماله صلة بالدين أو السياسة ، اللهم إلا صلاة الجمعة بين حين وآخر .

ورغم هذا فقد أفاق ذات يوم فوجد نفسه فى فم (التنين) محشورا فى زنزانة معنا ، وكان عليه أن يثبت انقطاع صلته بكل هذا ، كانت هذه هى مشكلته كما كانت مشكلة الكثيرين الذين ألقت بهم الحظوظ ليروا الحياة من وجهها الآخر ، وجهها الكئيب الكريه فى ضيافة سيادة اللواء حمزة البسيونى وغيره من أقرانه .

كان جمعا عجيبا متناثرا متباين الطباع والمزاج وكان عليه أن يتعايش فى سلام داخل عالمه الصغير الذى تمثله الزنزانة التى تهب عليها الريح ، ريح العذاب العبقرى فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

كنا على اختلاف فى الثقافة والميول ونوع التربية والاهتمامات .

فالأول كانت لذته الكبرى فى الصلاة واستعادة ما يحفظه من آيات القرآن الكريم وكنا نشاركه هذا فى كثير من الوقت .

والثانى كان يعيش على ذكرياته الغرامية يقصها علينا ليلا ونهارا ولايمل تكرار هذه الأقاصيص .

والثالث كان يلذ له أن يقص علينا أقاصيص كاذبة عن صداقته بعلية القوم والنابهين من الناس .

أما أنا فقد كانت تؤلمنى المأساة التى نعيشها ويعيشها الإسلام فى واقع المسلمين وكنت مشغولا طوال الوقت فى محاولة فهم الموقف ، وكنت أتذكر شخصية رجل قرأت عنها كان عنده من الأفكار مايكفيه أن يظل صامتا عشرة آلاف سنة يجتر فيها ذكرياته الفكرية إن جاز التعبير .

الفصل الحادى عشر

الاســـتجواب
على الطريقة الروسية

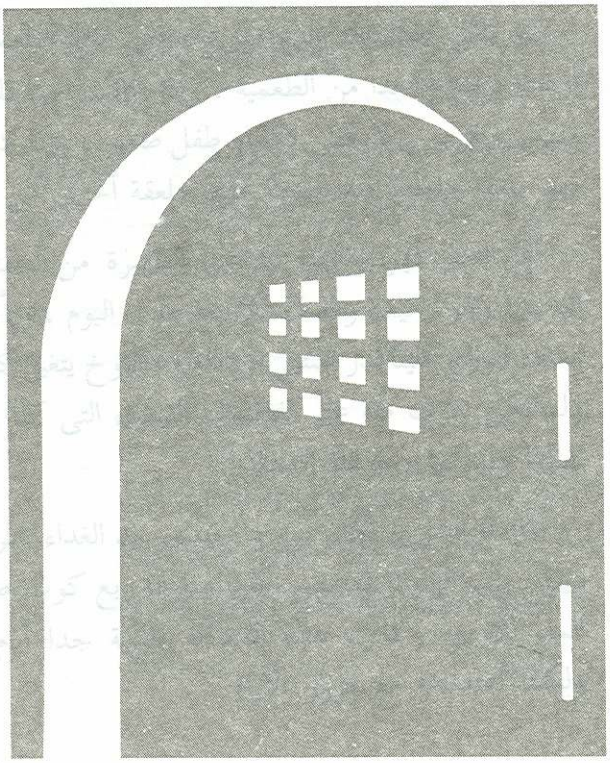

مكثت فى انتظار التحقيق حوالى أربعين يوما ، ننام على أسفلت الزنزانة وتدخل إلينا فئران كبيرة فى حجم القطط لتداعب أرجلنا ووجوهنا ، ولم نكن نعبأ بها عدا شخصا جديدا قدم إلينا وكان يخاف الفئران خوفه من السياط ، وكان يستيقظ فى الليل ويوقظنا ويتوسل إلينا أن نبقى معه ساهرين لنذب الفئران عنه ، فكنا نخلع ملابسنا نحاول أن نسد فتحة من الأرض والباب تنفذ منها الفئران ، فكانت تقرض الملابس وتدخل إلينا رغم هذا كله .

كان فى الزنزانة قروانة واحدة يوضع فيها الطعام القليل الذى تسمح نفوسهم به ، وكان الإفطار عبارة عن شاى وطعمية وأحيانا جبن مستورد وحلاوة وعسل أسود وطحينة .

طبعا لانأخذ هذه الأشياء كلها فى الإفطار ، ولكن كل يوم شيء ، عدا الشاى الذى كنا نأخذ نصيبا منه فى كل إفطار .

ثم نأتى للكميات التى توزع ، ففى يوم الطعمية يأخذ أربعتنا قرصا واحدا من الطعمية ، وإذا كانت جبنا فلنا جميعا منها ربع قرص ، لايكفى لإفطار طفل صغير ، وإذا كان عسلا فهو ملعقة واحدة منه يصب عليها ملعقة أخرى من الشاى .

أما الخبز فهو يقذف لنا عند الظهيرة من تحت عقب الباب ، وهو رغيف ونصف للأربعة طوال اليوم ، ويأتى وقت الغداء فيوزع علينا قدر ضئيل من طعام مطبوخ يتغير كل يوم ، ولم نكن نعرف منه غير الفاصوليا البيضاء التى كنا نغرم بها لقلتها وندرتها وجوعنا الشديد .

أما ماء الشرب فكان يمر بنا جندى بعد الغداء بفترة طويلة ويفتح باب الزنزانة فننتفض وقوفا فيناولنا ربع كوب صغير من الماء للأربعة وكانت هذه المسألة قاسية جدا أيام الحر ، ولكننا اعتدناها مع مرور الأيام .

وكانوا يأتون لنا ببعض الفاكهة بين حين وآخر ، وكانت الكمية ضئيلة جدا ، وكنا ننزل إلى دورة المياه مرة كل صباح ، وكنا نعاني من هذا النزول أمر العناء ونبيت نفكر فى هوله طوال الليل ، وعندما يقترب الجندى المكلف بإنزالنا يرتفع وجيب القلوب وتلهج الألسنة بالدعاء إلى الله أن تمر هذه اللحظات على خير ، ففيها خلاصة الضرب فى اليوم والليلة .

وكنا نعانى معاناة شديدة من الجوع والعطش ، وعند نزولنا إلى دورة المياه ، كان غاية مايتمنى الواحد فينا أن يقضى حاجته بأسرع مايمكن ، شيء كلمع البرق إن جاز التعبير ، وإلا فلا يلومن إلا نفسه ، ثم مسألة محاولة الشرب ، وياسعادة من يستطيع أن يعب ولو أقل قدر من الماء ليحتمى به من ظمأ النهار ، وكان البعض يصوم والبعض الآخر يغافل الحرس ثم ينطلق كالقذيفة ناحية الصنابير الموجودة على مقربة ويضع فمه على الصنبور ويفتحه فى فمه ويمسك به بكلتا يديه فى تشنج ولا يأبه لما يحدث له وهو يملأ بطنه بالماء مثل الجمل ، وكانوا فى بعض الأحيان يكتفون بضرب من يفعل هذا ضربا يوشك أن يفضى به إلى الموت، وفى أحيان أخرى يصر الحرس على أن يتقيأ صاحبنا الماء الذى شربه ، ولايزالون به حتى يفعل ، ثم يعود خائبا إلى الزنزانة قد شج وجهه وكسرت رباعيته ولم يظفر من الماء بأقل نصيب .

ويأتى يوم الاستحمام وهو يوم كالح شديد الكآبة تكثر فيه الإصابات ويسقط عدد غير قليل من الجرحى ، فعلى الواحد منا أن يستحم فى أقل من أربعين ثانية ، أو خمسين على الأكثر .

وكنا فى أول عهدنا بالسجن الحربى ، ننزل يوم (الاستحمام) بملابسنا ، ونبدأ داخل الحمامات بخلعها وماأن نفعل حتى يدخلوا علينا بالسياط ونعود وقد غطتنا الدماء ، وكنا نزهد فى هذا الحمام فيوسعونا ضربا ولكما أيضا وبعد هذا كنا نخاطر وننزل وقد تخلصنا من معظم مانرتدى من ملابس ، ويكون الضرب فى هذا اليوم كالمهرجان .

وكانت الحمامات فى معظم الأحيان لاتوجد بها مياه ، وكان علينا أن ننقل المياه من البئر القائمة فى فناء السجن الكبير فى أوعية المطاط المستعملة للبول ، وكان الأمر شاقا وبه خطر عظيم ، ونظل طوال ليلة الاستحمام نخطط لوقائع الصباح القريب لينتهى اليوم بأقل الخسائر ، ففلان عليه أن يعود بأقصى سرعته إلى البئر فيملأ وعاء المطاط ويأتى به ليقابله فلان فيأخذ منه الوعاء فيقدمه لفلان آخر ، الواقف عاريا داخل الحمام ، وهذا يستحم بأقصى سرعته ويرتدى ملابسه ويخرج بسرعة ليأتى للآخرين بالماء ، ونظل نحفظ أدوارنا قسطا طويلا من الليل .

وكان كثير منا لايستطيعون قضاء حاجتهم عند الذهاب إلى الدورة ، فالأمر يحتاج إلى تدريب من نوع خاص ، وقد أتقنا هذا بعد انقضاء وقت يسير .

وكان السؤال الذى يسأله كل واحد لصاحبه عند العودة للزنزانة ، هل قضيت حاجتك ؟ وكم تكون سعادتنا كبيرة عندما نتمكن جميعا من قضاء هذه الحاجة ، أما إذا حالت ظروف واحد دون ذلك – وكثيرا مايحدث وكما قلت – فهو يدخل الزنزانة كئيبا مكفهر الوجه ونقوم على مواساته حتى تشرق شمس يوم آخر ، وقد يصبر حتى اليوم التالى وقد لايصبر .

وكان الكلام ممنوعا خارج الزنزانة والويل لمن يضبط يتحدث مع زميله،كانت العقوبة مائة سوط ، وهم لايعدون فتصل فى أحيان كثيرة إلى خمسمائة ، فكانت التحية لمن يعرفون بعضهم بتحريك الحواجب إلى أعلى وإلى أسفل ، الأمر الذى يثير ضحكنا عند عودتنا إلى الزنزانة آمن مكان بمصر فى تلك الأيام .

وكان الخروج من الزنزانة معناه الضرب ، وقد يفقد الإنسان عضوا فيه من هذا الضرب ، وقد حدث هذا للكثيرين ، فهناك من فقد عينا وهناك من فقد إصبعا من قدمه بضربة فأس من حارس لايفترق عن الحيوان الأعجم .

والشىء الغريب أننا لم نكن نضرب وحدنا ، كان الذين يضربوننا فى النهار يقضون ليلهم فى عذاب وضرب هم الآخرون ، وكنا نرى ذلك خلال فتحة فى باب الزنزانة فيبدأ عذابهم فى أول الليل ولايزالون يضربون حتى يقترب الفجر ، وعندها يرسلون جنديا واحدا ليذهب بأهل ثلاثمائة زنزانة إلى دورة المياه ، وعليه أن ينتهى من هذا كله خلال ساعة واحدة ، فينطلق هذا الحارس كالوحش المسعور ويعمل فينا ضربا وفتكا لينتهى من مهمته فى الوقت الذى حدد له وغالبا مايفشل وهو لايستطيع أن يدعى كذبا بذهاب الجميع إلى دورة المياه فهناك من يراقبه وبفشله يقيد اسمه فى (طابور الذنب) الذى يقع فى المساء .

وكذلك الذى يوزع طعام الإفطار ، عليه أن ينتهى من هذا فى ساعة ويفشل ويقيد اسمه فى طابور الذنب فى المساء .

وكانوا ينتقمون منا أبشع الانتقام لظنهم أننا سبب شقائهم .

وكم لمعت أسماء الجلادين ، زغلول ، سامبو ، الروبى ، النوبى ، وكان هناك من أطلقنا عليه اسم محمدى (المطرقة) تشبيها (بشارل المطرقة) فقد كانت يداه صماء خرساء والويل كل الويل لمن سقطت هذه اليد على وجهه ، وهناك الكثير ممن فقدوا حاسة السمع فى ذلك المعترك الرهيب .

وكانوا يأتون للسجن الحربى بالجند المتخلفين عقليا ، الذين رسبوا فى الاختبارات النفسية التى أجريت لهم فى الجيش كالعادة ، فهؤلاء يصعب التفاهم معهم بل يستحيل .

وكان البعض منهم يأتى طيب القلب به فطرة الريف ونقاء خضرة مصر ، وسرعان مايحوله العذاب إلى وحش .

(أحمد أبو ودان) ذلك الجندى الطيب الذى كان يؤدى صلاة الفجر ويدعو لنا أن يخلصنا الله من هذا العذاب ، سرعان ماصار شرسا كالذئب ، وأذكر أنه حطم علينا بابا من الخشب ، كسره إلى ألواح وضربنا به حتى تفتتت الألواح كلها .

وقد استطعنا مع مرور الأيام ترويض البعض منهم ، فاشتهر فلان بأنه يستطيع أن يسوس زغلول ، وهذا النوبى ، وهذا ، إلا (سامبو) فما استطعنا له ترويضا رغم براعة البعض وذكائهم وزاد الأمر سوءا عندما منح شريطا على كتفه ، فقد صار يتصرف وكأنه مونتجمرى على مقربة من (سيدى برانى) أيام العلمين .

والحقيقة أن أيام الحربى على قسوتها ومرارتها كانت أجمل الأيام وأعذبها ، كنا نقضى وقتنا فى العبادة والاستغفار وقراءة القرآن .

وكان كل منا يقدم خلاصة خبرته وثقافته إلى الآخرين .

فمثلا زنزانتنا (٢١٠) كان الطبيب الذى معنا يقدم لنا درسا يوميا فى علوم الطب ويدرسه لنا كما درسه بالكلية ، وكنت أقول لهم محاضرة فى التاريخ يوميا ، وكان ذاك يحدثنا عن القانون وتاريخ القانون وهكذا .

وأذكر أن زنزانة من الزنازين كان بها صانع أحذية فكان يقدم خبرته لمن معه فى أنواع الجلود والحذاء الجيد وكيف تعرفه وتميزه عن قرينه الأقل جودة .

وكنا نتذكر وقائع النهار ونضحك عليها شطرا كبيرا من الليل ، وأذكر أننا كنا نضحك فى بعض الأحيان حتى تكاد جنوبنا أن تنفجر من الضحك ، ونهزأ من كل شىء من أقوال المحققين وطرائفهم فى التحقيق والمحاكم التى يزمعون إنشاءها ، ونحسب نصيب كل منا فى الحبس ، ونحمل بعضنا لينظر من نافذة الزنزانة ، فيرى الشارع والمترو وضاحية مصر الجديدة . وينزل وقد امتلأ حسرة على ماجرى فى هذا البلد العجيب .

وكنا لانعلم شيئا عما يدور فى العالم ، لاصحف ولا إذاعة ولازيارات ، ولاشىء على الإطلاق ، ونتسقط الأخبار من أوراق الصحف القديمة ، التى قد نجد منها قصاصات بجوار دورة المياه ، وتروج الإشاعات وكان معظمها غريبا عجيبا لايمثل إلا أمانى ذلك الجمع الذى فصل عن الحياة أو فصلت الحياة عنه .

كنت أناقش جميع الاحتمالات عن التحقيق مع زملاء الزنزانة وأعصر ذهنى لأتصور مايمكن أن أسأل فيه .

وكان دخول جندى بيده ورقة يصيب السجن كله بالذعر فهذه الورقة فيها أسماء أشخاص مطلوبين للتحقيق ونظل

مشدودين على تلك الكوة التى فى الباب خلف الذى ينظر منها وهو يذيع علينا ما رآه ، وكلنا آذان مصغية وحواسنا فى كامل انتباهها ، لقد دخل وهو ينظر ناحية اليمين فنفهم أننا لسنا المقصودين .

وفى يوم من الأيام كان فاروق عباس هو الذى ينظر من الكوة وصار يذيع علينا مايراه ، لقد نظر ناحيتنا ، إنه ينظر إلى الزنزانة إنه يصعد السلم ، يبدو أن أحدا منا سوف يذهب إلى التحقيق .

وأدركت أن ساعتى قد دنت ، ووقفت منتبها حتى اقترب الجندى وفتح باب الزنزانة ونادى علّى ، وفى لحظات كنت أهرول على السلم كما تقضى التعليمات ووقفت بجانب المخزن رقم (٦) ووجهى إلى الحائط حتى يستكملوا نداء من يريدونهم للتحقيق .

وأثناء هذا الانتظار كان بعض الجند يمر ويصفعنى كيفما اتفق ، واكتمل العدد ، وساقونا بعدها بالسياط إلى مكان التحقيق ، وكان منظرا طبيعيا ليس فيه غرابة .

وفى المكاتب حيث يدور التحقيق تسمع الصراخ والصياح وصوت السياط يصم الآذان ، وأجلسونا على الأرض فى مواجهة السور بحيث نسمع ولا نرى حتى يأتى موعد التحقيق .

وكنا نجلس هكذا حتى يمر علينا نهار وليل ، وبعدها تكون أعصابنا قد وصلت إلى منتهاها من التلف والتوتر وعندها ندخل إلى المحقق .

وضباط المباحث الجنائية العسكرية أكثر استهانة وعبثا بأرواح الناس ، وقد قتلوا فى تحقيقهم أكثر من ضعف من

قتلتهم المباحث العامة ، وفى تحقيقهم يعتمدون على التخويف أولا ثم الضرب بالسياط حتى يفضى إلى الموت فى أحيان كثيرة ، وهم فى تحقيقهم يستخدمون الكى بالنار بواسطة أسياخ مثل التى تشوى عليها اللحوم ويحمونها إلى درجة الاحمرار ثم يطفئونها فى أجساد الشهداء .

وكانوا يستخدمون التعذيب بالكهرباء بواسطة سلك عارٍ موضوع أمام مكتب كل ضابط وهو يأمر من يقف أمامه أن يتقدم ويمسك السلك بيده ويرغمه بواسطة كلاب البشر، وكلاب أخرى مدربة ، وكانوا يستخدمون الكلاب وندر الذى لم تنهش جسده ، ويضعون الذى يحققون معه عاريا فى المجارى ويرغمونه على الشرب من مائها ثم يخرجونه عاريا إلى الكلاب ، وكانوا يعلقون الذى يضربونه بحيث يكون رأسه إلى الأرض وقدماه إلى السماء ثم تنزل فرقة الضرب بالسياط وهم أربعة من شياطين الإنس ، وسرعان مايتلف جلد القدم ويتم هذا تحت إشراف ثلاثة من الأبالسة اللواء سعد زغلول عبد الكريم رئيس المباحث الجنائية العسكرية واللواء حمزة البسيونى، مدير السجون الحربية . جلاد مصر الأول ، ورئيسهم العقيد شمس بدران مدير مكتب المشير رجل الحرب المغوار عبد الحكيم عامر .

ومن مكانى فى انتظار التحقيق رأيت الكثير وسمعت الكثير ، رأيت زميلا لى لاأعرفه يدخل إلى مكتب التحقيق ويسأله الضابط :

– لماذا اعتقلت ؟

ويجيبه الزميل :

– لست أدرى .

فيعلق ويضرب بالسياط ثم يعيدونه ويسألونه ، وهو

لايدرى ومازالوا به حتى المساء وكادت روحه تزهق . وفى النهاية قال الضابط له :

– لقد اعتقلت لأنك عضو فى الإخوان .

كان على من يذهب إلى هناك (تحقيق المباحث الجنائية العسكرية) أن يعترف بادىءالأمر أنه عضو فى تنظيم الإخوان السرى فيوفر على نفسه علقة الافتتاح .

ومن مكانى رأيت عربة جيش فارهة تدخل الفناء ويضرب البروجى (نوبة سلام) وينزل منها ضابط عظيم لاأدرى أهو عميد أم لواء ، وإذا برقيب السجن صفوت يقابل هذا الضابط العظيم بالصفع على وجهه والرجل ينتحب كالطفل فقد فوجىء بما حدث ، ثم ينزعون الرتب من فوق كتفيه ويعلقونه ويجلدونه على قدميه ، ويبدو أنه عاد إلى الجيش مرة أخرى فلم أره بعد هذه العلقة .

ومن مكانى رأيت وسمعت الحاجة زينب الغزالى وهم يجلدونها بالسياط على قدميها وهى ترسل صراخا حادا فى الفضاء .

ومن مكانى رأيت أعجب منظر مر بى فى تلك الرحلة .

الضجة تملأ فناء السجن وتدخل شاحنات قد حملت بالبشر وينزل راكبوها فإذا بهم نساء ورجال ، أناس من فلاحى مصر ، وإذا بالرجال يأخذون على الأرض وضعا على أربع مثلما تفعل البهائم ثم تركب النساء على الرجال ويهرول

الرجال بهن بين فرقعة السياط والعويل والصراخ . كانوا أكثر من خمسمائة رجل على ظهورهم خمسمائة امرأة .

كان مشهدا بالغ الإثارة لايتصوره أحد وقد لايصدقه أحد ولكنى رأيته بنفسى .

لقد كانوا أهل كرداسة ولهذا قصة .

فى الساعات الأولى للتحقيق استدعى الأمر القبض على واحد من الإخوان من بلدة كرداسة من أعمال الجيزة ، وشاءت الأقدار أن يكون هذا المطلوب اعتقاله متزوجا من سيدة أراد أحد ضباط المباحث الجنائية العسكرية أن يتزوجها ولكنها فضلت صاحبنا من أهل كرداسة ، وأضمر الضابط الحقد فى نفسه ، وسنحت الفرصة عندما أرادوا القبض على صاحبنا ، وسعى الضابط لدى رؤسائه ليذهب هو فى هذه المهمة .

وذهب الضابط ومعه من المخبرين اثنان وطرقا باب من يريدون اعتقاله ، فلم يجدوه ، وهنا أمر الضابط بأن يقبض على زوجته رهينة حتى يسلم زوجها نفسه ، وثار الأهالى ورفضوا هذا المنطق ، وتجمع الناس وحدثت فتنة ، كل هذا والضابط على نفس الدرجة من الإصرار فى أخذ تلك السيدة ، ولم يكتف بهذا بل أطلق عيارا ناريا أصاب أحد الفلاحين ، وثار الناس وفتكوا بالضابط وهرب المخبران (١) .

(١) هذه الحادثة شبيهة بحادثة دنشواى التى حدثت عام (١٩٠٦) أيام الاستعمار الإنجليزى ولكن الإنجليز كانوا أكثر رحمة من سيادة الفريق أول محمد فوزى أحد أبطال النكسة .

وبلغ الأمر إلى المسئولين وتحركت فرقة من الجيش المصرى بقيادة الفريق أول محمد فوزى وحاصرت الدبابات كرداسة وأحالوا نهارها الى ليل ، ستة عشر ألف جندى من الجيش يحاصرون القرية ، وأبيحت القرية للجند ثلاثة أيام ، هتكت فيها الأعراض وقتلت الماشية وبعض الناس ، وفى المدرسة الإعدادية جلد كل أفراد القرية تحت إشراف الفريق أول محمد فوزى وكان عمدة القرية آخر من جلد ، ثم جىء بالمشتبه فيهم وكانوا خمسمائة بزوجاتهم وأطفالهم .

هذه القصة سمعتها من أهالى كرداسة الذين قابلتهم فى السجن الحربى وأبى زعبل وطره .

قال لى أحد الضباط مرة وهو يحقق معى ، وكان قد كف عن ضربى لمدة ساعة من الزمن :

– هاأنت ترى أن التحقيق أمريكانى ، بينما كل المكاتب تعمل بالطريقة الروسية !

كانوا يدعون أن التحقيق أمريكانى عندما يكفون عن ضربنا فترة يسيرة من الزمن وقد وصفوا طريقتهم بأنها روسية ، والحقيقة أن طريقتهم فريدة فى نوعها وتعتبر لا شرقية ولا غربية فى فظاعتها وعنفها وقسوتها .

جرى معى التحقيق مثل ماجرى مع سائر الناس على النحو الذى وصفت آنفا ، ولافائدة من تكراره ، واعترفت بما لم أفعل مثل غيرى ، ولكن صدقونى فى أن الكثير قد خفى عليهم وماكان لهم أن يعرفوه لامنى ولا من غيرى ، وعدنا إلى الزنازين أنا ومن كان يحقق معهم مثلى . ومكثنا ننتظر العرض على النيابة ، وقد أخبرنا أهل العلم أن النيابة تحمى المتهم من بطش رجال المباحث والشرطة ، وكنا نظن أنهم

سوف ينقلوننا إلى مكان النيابة العامة . وهناك سوف نخبرهم بالهول الذى تعرضنا له فى التحقيق . وكنا نظن أنهم سوف ينصفوننا من كل أنواع البطش الذى تعرضنا له .

وكان يسكن فى الزنزانة التى بجوارى رجل من الشرقية كنا نطلق عليه عم (أحمد بتاع الكلاب) وذلك لأن الكلاب قد شبعت من لحمه الطيب الطرى .

وفى يوم من الأيام رأيت عم أحمد وقد اصطبغ لونا أرجوانيا جديدا من الدم وهمست له متسائلا فى غفلة عن الحرس :

– ماذا جرى ياعم أحمد ؟ ظننت أنك قد انتهيت من التحقيق منذ مدة .

– نعم ولكنى عرضت على النيابة بالأمس .

– لاأفهم .

– لقد أنكرنا كل الأقوال التى قلناها تحت الضغط والتعذيب ، وكان الأمل أن يحمينا وكيل النيابة مما نزل بنا .

– وماذا حدث ؟

– لقد أرسل وكيل النيابة إلى المباحث العسكرية فجاءوه بفرقة من الجلادين ، واستمر جلد أهل الشرقية يوما كاملا .

– وكيل النيابة يفعل هذا ؟!

– نعم ، وهل هذا غريب ؟

– ولكن أين مقر وكيل النيابة هذا ؟

– أحقا لاتعرفه ؟

– كلا لأعرفه .

– عندما ترجع من المكاتب ألا ترى خياما بيضاء بين المطبخ والمستشفى ؟

– نعم .

– فى كل خيمة وكيل نيابة .

– من قال هذا ؟
– أنا الذى أقوله لك وسوف تذهب بنفسك إلى هناك .
– لاأصدق !!! النيابة فى السجن الحربى ؟
– مالك تستنكرها هكذا ؟ كأنك لاتعيش فى مصر ، لايوجد قانون فى مصر .
لايوجد شىء ، لايوجد عدا الظلم والطغيان .
– وماذا تنصح ياعم أحمد ؟
– فى أى شىء ؟
– عندما أذهب إلى النيابة .
– وافق على كل الاعترافات المزورة ، وإلا...
– وإلا ماذا ؟
وضحك عم أحمد بتاع الكلاب وهو يقول :
– ماتعرف وأعرف ياأخا الكفاح .

وكانت هذه هى المفاجأة التى هبطت على مرة واحدة . وكان ينبغى أن تكون مفاجأة .

اتخذت معنا بعض الإجراءات ، فمثلا كانوا يأخذوننا على دفعات لكى يأخذوا لنا صورا مختلفة ومعقدة ، يملئوا صحيفة سوابق خاصة بالبيانات المختلفة وكذلك الأقارب من الدرجة الأولى إلى الدرجة العاشرة ، وكان الذى ينتظر دوره يرى الآخرين يغادرون بوابة السجن الكبير فى أول النهار ثم يعودون فى آخره ، وكل واحد حريص أن يعرف شيئا محددا تمثل فى التساؤلات التى نلقيها على بعضنا البعض عندما نلتقى فى دورة المياه .

– أهناك ضرب فى التصوير ؟
وتكون الإجابة بنعم فى العادة .
ثم صاروا ينتخبون بعض الأفراد ممن لاتظهر على

أجسادهم آثار البطش من التحقيق فيمثلون أمام التلفزيون . ولكن من يتوقع ذهابه إلى حيث يقدم برنامج التلفزيون ليعترف أمام الملايين بأنه مجرم ومخرب ويستحق الموت يهتم بشيء واحد :

– أهناك ضرب فى التلفزيون ؟

وتكون الإجابة بنعم فى العادة .

وعاد القوم يتساءلون ويستفسرون :

– أهناك ضرب فى النيابة ؟

وأجاب بعض الظرفاء فى تبرم من كثرة الأسئلة عن الضرب :

– هناك ضرب فى كل شيء ، الضرب هو القاعدة ، ألا تضربون وأنتم تساقون إلى دورات المياه ؟ ألا تضربون وأنتم تستحمون ؟ ألا تضربون وأنتم تأكلون ؟ ، وأراد أن يقول وأنتم تشربون فقال وأنتم لاتشربون ، فقد كنا فى عطش طوال الوقت .

المهم فتحت الزنزانة فى يوم من الأيام ، وتوقعنا الشر كالعادة ، فالزنزانة لاتفتح إلا لشر ، وطالعتنا طلعة جندى جديد ، غريب عن السجن ، وانتفضنا قياما كما تعودنا ، وتقدم الجندى وسأل عنى ، وأخذنى من يدى ومازلت سائرا معه حتى غادرنا السجن ومثلت أمامنا المستشفى وكانوا يطلقون عليه (الشفخانه) ولاحت الخيام حيث يقبع داخلها وكلاء النيابة ، وهم لايقلون ضراوة عن زملائهم ضباط المباحث بنوعيها .

وتوقف الجندى أمام إحدى الخيام ، وفهمت أنه دور النيابة ، وصرت أتلو فى سرى ماأحفظ من آيات القرآن .

وأزاح الجندى ستارا يغطى باب الخيمة وألقى التحية وأعلم الجالس فيها بقدومى .

رجل يجلس على مكتب صغير وبجواره شاب آخر ، وهناك كرسى خشبى فى مواجهة المكتب (مكتب وكيل النيابة) – كما عرفت بعد ذلك – الذى أشار لى بأن أجلس فجلست على الأرض ، هكذا كانت التعليمات ، ولكنه أشار إلى الكرسى فقمت وجلست عليه فى صمت .

ونظرت إلى المكتب فرأيت عليه الاعترافات التى كتبتها قسرا وقهرا وعرفتها فهذا خطى وأنا أعرفه كما أعرف نفسى وعلى الاعترافات التى كانت هناك علبة سجاير (بلمونت) وكنت أدخن قبل اعتقالى ، أما الآن فأنا لاأحصل على الطعام فكيف أحصل على السجاير لقد نسيتها كما نسيت أى شىء آخر ، ولكنى تذكرتها الآن .

– تحب تدخن سيجارة ؟

هكذا قال لى .

– أنا ؟

– نعم أنت .

– لابأس إن سمحت .

وناولنى الرجل سيجارة وأشعلها فضحكت .

– مم تضحك ؟

– مم أرى .

– وماذا ترى ؟

– أرى التحقيق قد صار أمريكانيا .

– ماذا تقصد ؟

فحكيت له القصة ، فارتفعت حواجبه من الدهشة ثم قال :

– أتقصد أن هناك تعذيبا ؟

وفى هذه اللحظة وصل إلى سمعنا أصوات صراخ

وصياح ، فانفجرت ضاحكا فى سخرية بالغة ، وابتسم الرجل وقال لى :

– تحب تشرب شاى ؟

– ماالمسألة ؟ سيجارة ، ثم شاى ، ماذا جرى ؟

– ماقلت ، صار التحقيق أمريكانيا .

ثم أمر الجندى أن يأتى لى بكوب من الشاى ، وأدى التحية وانصرف ، ثم قال لى :

– إنت عارف أنا مين ؟

– لم يحدث لى الشرف من قبل .

– أنا محمد حسين لبيب وكيل نيابة أمن الدولة العليا .

وفى هذه اللحظة ارتفعت فرقعة السياط وأصوات الصراخ وكأنها تجرى خارج الخيمة ، كان أحد وكلاء النيابة الأفاضل يشرف على جلد أحد المتهمين ، فوقفت من الدهشة والخوف معا ، ولكنه نظر إلى باسما وأشار لى بالجلوس :

– لماذا وقفت ؟ اتفضل . اجلس .

وجلست ، والتفت هو إلى زميله وقال :

– نفتح المحضر ، باسم الشعب ، إنه فى يوم ..، وصار يملى على سكرتيره الديباجة التى تكتب فى هذه الأحوال ، ثم سألنى عن الاسم والسن والصنعة والعنوان . وأمسك اعترافاتى وقربها من عينى ثم قال :

– تتذكر هذه الأوراق ؟

– نعم .

– خذها وقلبها جيدا ، أهذا توقيعك ؟

– نعم .

– أتذكر ماكتبته بها ؟

– أذكر بعضه ، ولاأذكر البعض الآخر .

– تقصد أنك الذى كتبت هذا الاعتراف ؟

– نعم ، ولكن .

وقاطعنى وقد ظهر الشر فى عينيه :

– ماذا تقصد بلكن ؟

– أقصد ، أريد أن أقول ، لقد كتبت هذا الاعتراف تحت ضغط ماتسمع وتعرف .

وكان صوت السياط يقرقع ، ونظر إلى ساخرا ومنذرا :

– إذن فأنت لاتخافها ؟

– ياسيادة وكيل النيابة دعنا نتحدث بصراحة .

– هذا ماأريده منك .

– لايوجد فى هذا الكون من لايخشى الضرب بالسياط ، حتى أنت .

– حتى أنا ؟!!

– نعم فلو لم تكن تخشى هذه السياط لما رضيت أن تقف منى هذا الموقف .

– ماذا تعنى ؟

أنت أداة فى يد المباحث العسكرية ، أنت تغطى إجرامهم بثوب قانونى مهلهل .

وكان الجندى قد دخل بالشاى وقدمه لى وأدى التحية وخرج ، وانبريت أقول له :

– لعلك لن تسمح لى بشرب الشاى بعد ماسمعت منى ؟

– أبدا على الإطلاق تستطيع أن تشربه .

وكأنما الرجل أحس بوخز يسير فى ضميره ، وشجعنى صمته فصرت أقول له :

– ماضرورة ماتفعلون ، وكلاء نيابة يحققون وأجور إضافية وورق وحبر ، لم يكن داع لكل هذا ، كان يكفى أن يكتب كل ضابط مباحث عسكرية أو عامة العقوبة التى

يقترحها على اعترافات كل معتقل وترسل إلى رئيس الجمهورية أو لا ترسل،لا أهمية لهذه الشكليات ، وفروا المال للدولة ولاتعطونا أملا كاذبا بلا معنى له .

– أتراك تهزأ بنا ؟

– أبدا والله لا أهزأ ، ماضرورة هذا المال الضائع والجهد الذى يجب أن يوفر لشىء آخر ؟

–هذا حتى تعلم اهتمام الدولة بأن يكون الأمر للقانون أولا وأخيرا ، وكان من السهل أن أسمع ، قل لى :

– نعم .

– ماعددكم ؟

– لاأعرف .

– ستة آلاف ، سبعة آلاف ، عشرة آلاف . ماذا يحدث لو قتلتم جميعا عن آخركم ؟

– سوف يذكر التاريخ ذلك .

فقال هازئا :

– وماأهمية التاريخ ؟

– ولن يغفر الله لكم أبدا .

– يجب أن تعرف أنه رغم استطاعتنا إبادتكم فنحن لانقبل ذلك ، عندنا قانون ، ونيابة ، ومحاكمة عادلة .

وصرت أضحك وأشهد أن الرجل كان حليما معى .

– ماالذى يضحكك ؟

– ذكرتنى بالمحاكمات العادلة ، وبالمناسبة متى سنمثل أمام المحاكم العادلة ؟ قل لى ، أهناك ضرب فى المحاكم ؟

– ألا ترى حلمى معك ؟

– أرى ياسيدى ، وهل أنكرت شيئا من ذلك ، ولكن إلى متى يدوم هذا الحلم ؟

– سوف نرى .

واستمر التحقيق قرابة العشرين ساعة ، والحقيقة أن الرجل لم يمد يده على أثناءه ولكنه تجاهل اعتراضى على قيمة الاعتراف ولما أردت أن أثبت بعض الإصابات التى فى جسدى بمحضر التحقيق قال لى :

– صدقنى ، لاأهمية لشىء من هذا بالمرة .

ثم همس فى أذنى على مرأى ومسمع من سكرتير التحقيق :

– سوف يجر عليك هذا الكثير من المتاعب ، ولن يفيدك أدنى فائدة ، ولحظتها أحسست أن وكيل النيابة مثلى تماما ولافرق بين مركزه القانونى ومركزى من حيث أنه مواطن مصرى ، من المسئول عن هذا الفساد ؟ من الذى يدير عجلة الإجرام فى مصر ؟ آلة ضخمة تصنع الفساد والإجرام والطغيان ولها مفتاح واحد ، وهذا المفتاح تحت سيطرة واحد الكل يعرفه ويبجله ولا يستطيع أن يمسه بكلمة سوء .

كان وكيل النيابة يؤدى عملا يتنافى مع ضميره كإنسان ومع وظيفته كمحام عن المجتمع ، ومأأظنه راضيا عما فعل الآن ، بعد أن مرت السنون وتضاءل الذين كانوا يصنعون الشر ، وأودعوا مكانا مظلما بعيدا عن الحياة والمجتمع .

كان وكيل النيابة يضفى ثوبا قانونيا مهلهلا على الجريمة التى ارتكبت ضد الشعب فى شخص الإخوان المسلمين بالسجن الحربى ، وقد أدى عمله ببراعة ونجاح .

وعدت آخر النهار إلى الزنزانة ألعن النيابة وألعن القانون وألعن كل شيء فى هذا البلد ، وكان ما يحدث فى السجن الحربى عام (١٩٦٥) هو مقدمة طبيعية لهزيمة يونيو حزيران (١٩٦٧) الأمر الذى ذكرنا بقول الشاعر :

أسد على وفى الحروب نعامة ...

الفصل الثانى عشر

ما بعـــد التحقيـــق

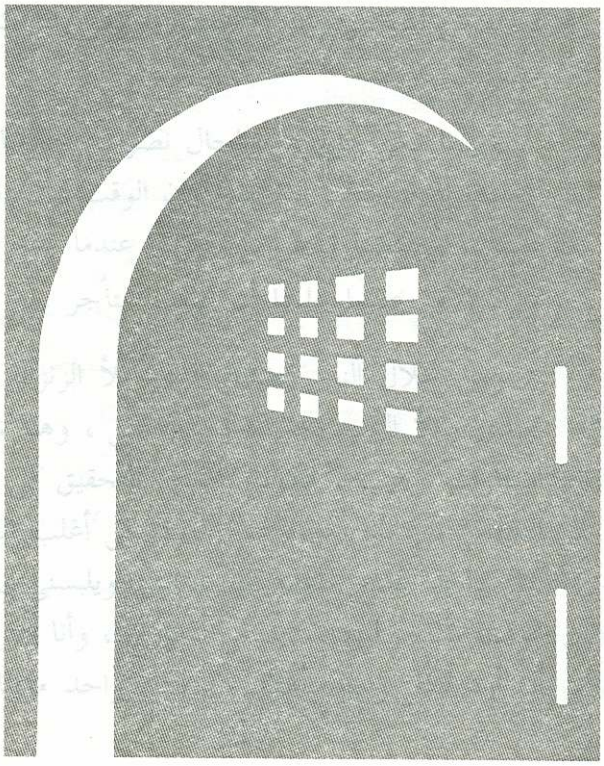

انتهى التحقيق وكان كالقدر علينا أن نؤمن به ونرضى بما قسمه الله لنا فيه واستقر كل واحد فينا فى زنزانته ينتظر ادعاء النيابة ليمثل بعدها إلى المحكمة ولم نكن نعلم كيف تكون هذه المحكمة ، أو أين تعقد .

ولكن ذكريات محكمة الشعب التى عقدت عام (١٩٥٤) برئاسة قائد الجناح جمال سالم كانت تطاردنا وتؤرق مضجعنا ، وكان عزاؤنا أنهم لن يستطيعوا الحصول على رجل مثل جمال سالم الذى كان يطلب من المتهمين أن يقرءوا الفاتحة بالمقلوب ، وكنا نتمرن على مثل تلك القراءة فى الزنزانة .

ومن أهم الأشياء التى كانت تشغلنا هو محاولة تفهم وضعنا من ناحية القانون ، هل سنحاكم بتهمة العيب فى ذات رئيس الجمهورية ؟ أم سنحاكم بتهمة إحداث انقلاب فى شكل الحكومة بالبلاد ؟ وكنا نفكر فلا نجد أن واحدا فينا قد تعرض لشخص رئيس الجمهورية ومن يشاركه الحكم فى مصر .

وبينما نحن على هذا الحال نضرب أخماسا فى أسداس كعادتنا إذ فتح باب الزنزانة وكان الوقت ليلا ونحن فى نوم عميق ، وانتفضنا مذعورين كعادتنا عندما يفتح هذا الباب ، وزاد الأمر عندما علمنا أن الوقت متأخر .

ومن خلال النور الضئيل الذى ملأ الزنزانة لمحنا شبح جندى يملأ الباب بجسده وسأل عنى ، وهنا شمل الزنزانة اضطراب رهيب ، فكونى أطلب للتحقيق فى هذا الوقت المتأخر من الليل معناه عدم العودة فى أغلب الظن ، وصار كل واحد يخلع ماعليه من ملابس ويلبسنى إياها بسرعة ، الوقت شتاء والبرد شديد فى الخارج ، وأنا أعترض وأحاول أن أرد لكل واحدماأعطانى ، فكل واحد محتاج لما عليه

ليواجه برد الشتاء القارس ، أما أنا ، فما نفع الجثة بالدفء وماضرها بالبرد ؟

ونزلت مع الحارس إلى ساحة السجن الكبير ، الكلاب تعوى ، والحرس يضحكون ، وطبعا لم أعدم نصيبا من الإهانة والضرب والتحقير ، كان التحقيق قد انتهى ، والكل فى انتظار الادعاء الذى تعده نيابة أمن الدولة ، ترى هل فتح باب التحقيق من جديد ؟ أم ماذا جرى ؟

أخذونى إلى مكاتب التحقيق وأفزعنى ماسمعت ، كانت السياط تفرقع ، والصرخات تملأ المكان ، والكلاب تنهش الأجساد ، لقد استبانت الحقيقة المخيفة التى تأكدت لى مع مرور الأيام ، التحقيق فى السجن الحربى لاينقطع يوما واحدا ، كل يوم هناك متآمرون ضد نظام الحكم ، وكل يوم هناك من يعذبون ويضربون وتنهش أجسادهم ، وكان هناك شىء آخر ، لقد كانوا يأتون ببعض كبار الضباط ويؤدبونهم بالضرب ثم يرجعونهم إلى وحداتهم ، وكذلك كانوا يفعلون ببعض كبار الموظفين ، لقد اتخذ شمس بدران مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر من السجن الحربى مكانا ليؤدب فيه الشعب ممثلا فى طوائفه المختلفة .

فى هذا اليوم أجلسونى فى مكان مظلم بجوار حجرة من حجرات التحقيق وعلى مقربة منى كان يقف شمس بدران يحدث الرائد محمد عبد الفتاح السيسى الذى كان متهما بالسرقة والتهريب باسم المشير ، فقد كان يعمل فى مكتبه ، وكم كان فى مكتبه من اللصوص والجلادين الذين أساءوا إلى مصر .

– اسمع يامحمد .

– أفندم .

– بكره عندك مجلس عسكرى ، سوف تحاكم .

– حاضر ياافندم .
– لاتضايق المحكمة كثيرا ، أتفهم ؟
– حاضر ياافندم .
– سوف يحكم عليك بخمسة وعشرين عاما .
– ولكن .
– لاتخف ، سوف تبقى بالسجن مدة يسيرة ثم أفرج عنك .
– أمرك ، ياافندم .
– أتحب أن تشعل سيجارة ؟
– ياريت ياافندم .

وقدم له سيجارة وأنا منصت لهذا الحوار العجيب فى دهشة بالغة ، ماهذا الذى يحدث ؟

واقترب منى شمس بدران وسأل أحد الضباط ، فقد كان الظلام شديدا فى ذلك الركن الذى أجلس فيه :

– من هذا ؟

وأجاب الضابط فى احترام شديد وسرعة بالغة :

– هذا فلان ياافندم .

وذكر اسمى ، واقترب شمس بدران ، وكدت أرى بسمته الساخرة على جانب فمه رغم تعذر الرؤية .

– كيف حالك ؟
– الحمد لله .
– مبسوط .
– الحمد لله .
– هل لك رغبة فى شىء ؟
– الحمد لله .

والتفت شمس بدران إلى الضابط الواقف وقال له ، أدخله على مكتبى بعد ربع ساعة .

– حاضر ياأفندم .

وابتعدت الأشباح ، وصرت أرنو إلى السماء ، وقلبى يهفو إلى جلال الله سبحانه وتعالى ، فالأمر أكبر من الدعاء والابتهال ، الله يرى مايفعل بنا فى هذا المكان الغريب ، مامن تهمة يمكن أن توجه أكثر من أنى أحاول أن أعبد الله وحده على الوجه الذى يرتضيه ، نحن نحاول أن نضع مستقبلا لبلادنا خيرا من واقعها النكد الذى نعيشه ، ونحاول أيضا أن نمد لها الدواء الذى أصلح أول هذه الأمة ، أمن الصواب أن نكفر بالله لترضى الحكومة عنا ؟ فليفعلوا بنا مايستطيعون ، ولكنى لن أترك عبادة الله ، وأفقت من أفكارى الصاخبة فى صدرى على يد تمس كتفى .

– هيا قم ، لقد أتاك الموت .

وعلمت أن شمس بدران قد أذن لى بالدخول عليه ، ترى ماذا حدث ؟ هل جاءتهم معلومات جديدة ؟ سوف نرى بعد قليل ، ودخلت حجرة شمس بدران لاهثا ، وإذا به يطالعنى بابتسامة مرحبة :

– أهلا ، أهلا اتفضل بالجلوس .

وجلست على الأرض .

– كلا . لاتجلس هكذا ، تفضل على الكرسى .

وأشار إلى مقعد خشبى فى مواجهة مكتبه الفاخر القابع فى تلك الحجرة المتوسطة الواسعة وظننت أن هناك خطأ ما ، ولكنه أكد لى بيده المشيرة إلى المقعد أنه ليس هناك خطأ ما ، أأجلس على كرسى فى مواجهة شمس بدران ؟ ماذا حدث للدنيا ؟ وجلست وقد خلا ذهنى من أى تصور ، وجاءنى صوته من جديد :

– ماذا تريد أن تشرب ؟

ترى ماالذى يرمى إليه هذا الرجل ؟ أيقدم إلى شيئا أشربه ؟ ولم أستطع الرد عليه .

– آتيك بكوب من الشاى الدافئ ؟

ياإله السماوات !!! شاى دافىء!!! وتشجعت .

– لابأس .

وأمر شمس أحد الضباط أن يأتى بكوب من الشاى على وجه السرعة ، وهرول الضابط ليصدع بالأمر ، وعاودتنى نظرة شمس من جديد .

– هل تعرفنى ؟

– وهل هناك من لايعرفك ياسيادة العقيد ؟

وجلجلت ضحكته وغطت على صوت التعذيب القادم من بعيد .

– اسمع ، أحب أن أتحدث معك حديثا جادا بعيدا عن التحقيق فأنت تعلم أن التحقيق قد انتهى .

– تفضل .

– هل تستطيع الكلام معى بصراحة متناسيا وظيفتى والمكان الذى نجلس فيه الآن ؟

– هذا أمر بالغ الصعوبة ، ولكنى سوف أحاول .

وهنا قدم الضابط كوب الشاى ، وقال له شمس :

– قدمه للأستاذ فلان .

وقدم الضابط الشاى لى فى تودد وبشاشة وهو يكاد ينسكب على ملابسى من فرط عجبى ودهشتى ، وصرت أرشف منه فى لذة وسعادة فقد كان الوقت شتاء وماكنا نحصل على شىء ساخن مثل هذا ، وانبرى شمس :

– قل لى ماالسبب فى لجوئكم إلى العمل السرى ؟

– من تقصد ؟

– أقصد الإخوان المسلمين .

– ولكنى لست عضوا فى جماعة الإخوان .

– والتحقيقات ؟

– ألم تقل لى نتكلم بصراحة ؟

– نعم .

– هذه هى الصراحة إذن ، لست عضوا فى جماعة الإخوان .

– هذا الحديث ليس له صلة بالتحقيق ، ونحن نريد أن نعالج هذه الظاهرة .

– أى ظاهرة ؟

– ظاهرة العمل السرى .

– أنا أقول لك .

– وأنا أستمع .

– أليس من الغرابة بمكان أن أتحدث معك بصراحة ، أو أن تطلب منى ذلك فى مثل هذا المكان ؟ ألا تسمع أصوات الصرخات ؟ أليس هذا بأمرك ؟

– ليسوا من الإخوان ، إنهم من الجيش .

– أنا أتكلم من ناحية المبدأ .

– لقد كنت مضطرا إلى كل هذا ، تصور نفسك مسئولا عن الأمن والنظام فى بلد مثل مصر ، ثم جاءت الأخبار بأن الإخوان قد أعدوا خطة لقلب نظام الحكم ، حتى أعرف الحقيقة ماذا أفعل ؟ لابد لى من الضغط حتى يعترف الجميع ونفهم أبعاد المؤامرة .

– هذا يجرنا إلى الحديث عن التنظيم السرى .

– وهذا ماأريدك أن تحدثنى عنه .

– أتدرى لماذا يلجأ بعض الناس إلى أسلوب العمل السرى ؟

– فى انتظار إجابتك .

– أنتم تكممون الأفواه وتفرضون على الناس نظاما واحدا أنتم سدنته وأصحابه ، وقد تخطئون ، والنفوس قد جبلت على الحرية ومن الصعب قهرها إلى أمد بعيد .

– وضح كلامك .

– لو كنت تريد اختفاء لظاهرة التنظيم السرى فعليك أن تقنع الناس بأن يقولوا فى العلانية مايريدون عمله فى الخفاء .

– ماذا تقصد ؟

– ألا تتصور أن هناك من لايرضى حكمكم ولايقبل سيادتكم ؟

– هذه هى طبيعة الأشياء ، الناس لايتفقون على شىء واحد .

– إن كانت هذه هى طبيعة الأشياء فلماذا تقفون ضدها ؟ وهل تنجحون ؟

– أريد أن أفهم ماتعنيه بالضبط .

– أعنى أنكم لو سمحتم للناس أن تقول ماتريد وحميتم حريتهم فى ذلك فلن يكون هناك داع للتنظيم السرى .

– نسمح بقيام الأحزاب ؟

– هذه هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التنظيم السرى .

– أتظن أن من اعتادوا على التنظيم السرى يرضون بالإعلان عن أغراضهم للناس ؟

– ولماذا لايرضون إن كان القانون سوف يحميهم ، والشىء الصالح هو الذى يبقى ويسود .

– لقد ذهبت بعيدا ، تريدنا أن نعيد الأحزاب ؟

وجلجلت ضحكته الساخرة فى فضاء الحجرة التى شهدت موت عدد غير قليل من الناس .

– هذا هو رأيى .

والتمعت عيناه وهو يقول :

– كيف نرضى عاطفة الناس الدينية ثم نحافظ فى الوقت نفسه على شكل النظام ؟

– لو كوّنتم شعبة للنشاط الدينى تابعة للاتحاد الاشتراكى لكانت هناك فرص لتحقيق هذا الإشباع للجماهير .

– ولكن ألا تنفصل هذه الشعبة عن الاتحاد الاشتراكى ؟

– هذا هو بعض الحل ، أما انفصال الشعبة فقد يكون نواة لحزب جديد .

– هل ينسى الإخوان ؟

ولم يكمل عبارته بل تشاغل فى بعض الاوراق ، ثم عاد يرنو إلى من جديد وهو يقول :

– إذن فلا فائدة ؟ لن نسمح بعودة الأحزاب ولن ننشئ مثل هذه الشعبة التى تقول عنها .

– ولن تقدروا على منع الأحزاب والمنظمات السرية من الظهور ، سوف تظهر التنظيمات ، تنظيم يتبعه آخر ولن تفلح وسائل القمع والإرهاب ، صدقنى ، لن يفلح شىء .

– مع من ؟

– مع الناس .

وعدت هذه الليلة إلى الزنزانة أقص على إخوانى ما جرى وأنا دهش مما سمعت ، وكانوا أكثر دهشة منى .

* * *

مرت بنا فترة عصيبة أثناء التحقيق فى الأيام التى تلته فقد كنا لانخرج من الزنزانة إلا لحظات فى الصباح لنذهب إلى دورة المياه ثم نبقى بقية اليوم ، وكان أقصى مايتمناه الواحد فينا أن ينزل إلى فناء السجن فى الصباح ويسترخى فى أشعة الشمس الدافئة بعيدا عن برد الزنزانة الذى ينفذ إلى العظام .

وفى يوم من الأيام شاهدنا حركة غير عادية فى فناء السجن ، دخل حرس كثير وصاروا يفتحون أبواب الزنازين ويخرجون الناس منها ويصفونهم صفوفا ، وكان عجبنا شديدا ، وسرعان ماجاء إلى زنزانتنا واحد من الحرس وفتح علينا وأمرنا بالنزول ، ونزلنا ونحن فى فرحة بالغة ، فلأول مرة يجتمع المعتقلون فى صعيد واحد ، وصرنا نتبادل

التحيات بوجوه باشة سعيدة ، دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة .

وصار كل واحد يحاول أن يلقى زملاءه فى القضية ليعرف منهم ماذا قالوا عنه ويخبرهم بالذى قال عنهم ، وصار كل يوصى صاحبه بتغيير الكلام فى المحكمة عندما تنعقد ، وعرفنا كثيرا من أخبار البلد ، فقد أقال عبد الناصر على صبرى وعين بدلا منه زكريا محيى الدين ، رئيسا للحكومة ، وسمعنا شائعات عن اعتقال الجماعة الإسلامية فى باكستان ، وسمعنا عن مجموعة الانقلابات العسكرية التى فجرتها المخابرات الأمريكية فى آسيا وأفريقيا .

وكان يوما رائعا تمتعنا فيه بحرارة الشمس الدافئة واستطعنا أن ندخل دورات المياه مددا كاملة ، وشربنا حاجتنا من الماء ، وأعلنوا لنا فى آخر اليوم عندما اقتربت الشمس من المغيب أننا سنخرج كل يوم فى النهار ولانعود إلى الزنزانة إلا فى آخره ، وكانت فرصة ليست بعدها فرصة ، فقد كان هذا غاية مانتمناه ، وماكنا ندرى ما يراد بنا ، دخلنا الزنزانة وكل واحد فينا يحكى لأصحابه عن الذكريات ذكريات اليوم البهيج .

وأذكر أننا قضينا وقتا طويلا من الليل فى سمر وضحك فى انتظار مطلع الشمس لنخرج من الزنزانة إلى الفناء الفسيح ، حيث الأصدقاء والشمس ودورة المياه . وفى الصباح ، وقبل أن تطلع الشمس بكثير فتحوا علينا باب الزنازين وأنزلونا إلى دورات المياه ، فقد كان علينا أن نقضى هذه المهمة قبل بدء الطابور ، وانتهينا منها قبل أن تشرق الشمس وعدنا إلى الزنازين ووزع علينا الإفطار الهزيل وبهجتنا أكبر فى نفوسنا من الجوع .

وفى تمام الساعة السادسة والنصف توسط العريف (على أبو زومه) فناء السجن ونفخ فى صفارته ومعناها أن نقف منتبهين داخل الزنازين – هكذا علمونا – ثم نفخ فيها أخرى ان نغادر الزنازين فى لمح البصر، ونقف ووجوهنا إلى الحائط فى كل أدوار السجن ، ثم ينفخ أخرى فننطلق مسرعين إلى فناء السجن لنقف بالعلامات التى حددوها لنا بالأمس ، كنا نظن أن هذا الأمر سوف يخفف عنا العذاب ، أو أن النزهة وتغير المنظر سوف يجعلنا أكثر احتمالا ، ولكن خاب ظننا كما ستعرفون بعد قليل .

وقفنا فى فناء السجن وقد قسم المعتقلون إلى سرايا بكل سرية حوالى مائة أو أكثر ، وكان أول ماعلينا أن نفعله أن نعدو فيما يسمونه (بالعدو الصباحى) .

وبدأ العدو وخرجنا من ساحة السجن الكبير إلى الفناء الخارجى حيث المستشفى والمطبخ وسائر البنايات الملحقة بالسجن ، ومسار العدو فى مستطيل كبير أمام هذه الأبنية .

وفى هذا اليوم رأيت سيد قطب وهو يتمشى على مقربة من المستشفى رابط الجأش حديد النظرة يسير فى خطوات متئدة ويرقبنا بين حين وآخر ، عندما بدأنا العدو ظننا أنه لن يأخذ سوى دقائق ، ولكننا فوجئنا بأننا لا نستطيع العدو لطول الفترة التى قضيناها فى الزنازين .

وظننا أنه فى وسع أى واحد منا أن يستأذن ويخرج من الصف ، ولكن كان هذا الطابور طريقة جديدة للعذاب .

فعندما سقط البعض هرع إليهم الحرس بالسياط وأوجعوهم بها ليقوموا فقام البعض ولم يستطع البعض الآخر ، ثم انتقلت فرقة الحرس إلى الصفوف تسوق الناس بسياطها ، والويل لمن يتوقف واستمر الحال على هذا المنوال ساعتين من الزمن عدنا

بعدها إلى السجن الكبير وصرفونا إلى الزنازين ، فقد قدر لنا بعد هذا اليوم أن نتناول طعام الإفطار عقب طابور العدو .

وكنا نسقط على أرض الزنزانة ولايستطيع واحد منا أن يمد يده إلى الطعام من شدة التعب وكان العرق ينضح على أجسادنا رغم برودة الشتاء وفى الساعة العاشرة يتكرر ماحدث فى الصباح وننزل إلى الفناء وكان من المقرر أن تسير هذه السرايا الطويلة طوال النهار فى فناء السجن الكبير ، وما كان يحدث هذا فى أغلب الأحيان .

كان حمزة البسيونى يدخل السجن الكبير على جواد أبيض وبروح جماعية يحاول الجميع منافقته فنضج بتصفيق حاد ، ويمتلىء ذلك المخلوق غرورا ويأمر الجند بأن تعدو هذه السرايا ، ويستمر العدو ويسقط الناس ، ويحاول الجند تملق ضابطهم الكبير على طريقتهم فيوسعوننا ضربا بالسياط والبسيونى على حصانه وقد ركبه الغرور ونفخ الشيطان فى روحه .

وكانت هناك سرايا خصصت للمرضى وكبار السن وكانت معفاة من العدو والرياضة العنيفة التى كان على غيرهم أن يؤدوها ، وكان يطلق عليها سرية (العواجيز) ، وكانوا يرسلون إليها من يصاب أثناء الطوابير ، ويختارون الذين منوا بإصابات جسيمة .

ويشاء حظ هذه السرية العاثر أن يوكل بها رجل أبله كان شهيرا فى تلك الأيام اسمه (رشاد مفراج) وكنت قد التحقت بهذه السرية عقب إصابتى فى قدمى إصابة بالغة تمنعنى حتى من السير ، ولكن ليتنى ماأصبت وليتنى لم ألتحق بها .

كان (مفراج) يجعل هذه السرية تعدو وقتا أطول من بقية السرايا التى بها أصحاء وكان يضرب من يرفض العدو ضربا مبرحا قاتلا وكان يصرخ فينا – ياعواجيز يا أبناء العاهرات – سوف أقتلكم جميعا ، وكاد يفعل والله .

وكنا نعود إلى الزنزانة فى المساء وقد أضنانا التعب وهدتنا آلام مبرحة ، ويصير اليوم التالى كابوسا لا نحب أن يأتى ، ويدخل الواحد منا ولايكلم أحدا من زملائه من هول مابه ، وإن ضبط واحد يتحدث مع آخر فيمسكون بهماويجعلونهما أمثولة ، ورغم هذا كنا نتكلم ومامنعنا الضرب من فعل أى شىء .

كانت الإبرة محرمة وكذلك الخيط ، فكنا نحتال لنخيط ملابسنا الممزقة ، فنسحب خيطا من نسيج الثوب وشوكة من أشواك السمك الذى كانوا يأتوننا به أحيانا ونخيط مانريد .

ويمر العريف فى طابور الصباح فيكتشف ثوبا مخيطا فيخرج صاحبه ويسأله كيف فعل ذلك فيحكى له القصة فلا يصدق فينهال عليه ضربا موجعا قاتلا ، كانت الطوابير وبالا ونقمة علينا ولولا أننا استطعنا فيها أن نسترد طعامنا الذى يسرقه الجند لما قدر لنا أن نظل أحياء على النظام الذى أجروه معنا فى صور التعذيب الجديدة من خلال الطوابير . كانوا يسرقون الجبن فنسترده منهم كذلك اللحم والخبز والحلاوة الطحينية والعسل الأسود ويتخصص أفراد معينون فى أصناف الطعام المختلفة فهذا اختصاصى فى استرداد الجبن ، وذلك الخبز ، وآخر اللحم وهكذا ، ويحاول كل واحد أن يوزع أكبر قدر من المواد التى استردها على إخوانه ويختص المرضى والشيوخ بأكبر نصيب ، وكانت روح الجماعة ظاهرة فى نفوس الإخوان فى السجن الحربى .

كل واحد يحب من معه ويحرص عليهم ويفديهم بنفسه إذا اقتضى الأمر ، مر أحد الجند على السرايا فسمع همهمة فيها فأمر من تكلم بالخروج فلم يخرج أحد ، وكان الذى تكلم شيخا كبيرا طرد قريبا من سرية العواجيز وخاف أن يخرج فيبطش به الجندى وهو رجل ضعيف فسكت ولم يخبر عن نفسه .

وهدد الجندى بأنه سوف يمثل بالسرية إذا لم ندله على الذى تكلم وكان معظم من بالسرية يعرف ذلك الذى تكلم ولم يش به أحد ، واستمر الجندى يمثل بنا فى هذا اليوم ، من الظهر حتى غربت الشمس ، ولم ينطق أحد باسم الذى يبحث عنه الجندى .

فى أثناء الطوابير التقينا بكل من كانت له صلة بالتنظيم وعرفنا الكثير من الأشياء التى خفيت علينا ، التقينا بعبد الفتاح إسماعيل عليه رحمة الله وأحمد عبد المجيد عبد السميع وغيرهم وغيرهم .

الفصل الثالث عشر

القانون والقضاء في إجازة

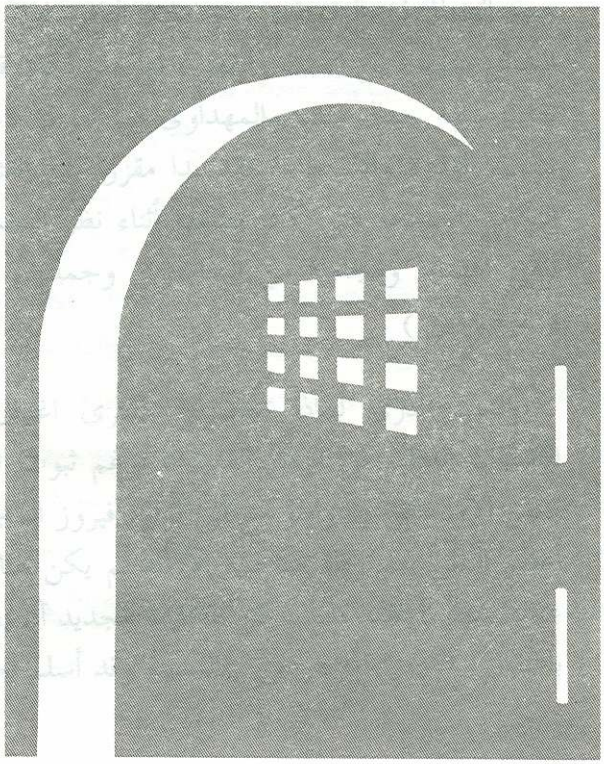

من الأشياء الطريفة التى تتعلق بقضية الإخوان أن قرار الحاكم العسكرى الذى صدر عام (١٩٥٤) بحل جماعة الإخوان المسلمين لم ينص على عقوبة معينة لمن يخالف هذا القرار ، وعلى هذا لايعد مخالفا للقانون من عمل على إحياء جماعة الإخوان بعد عام (١٩٥٤) فلا جريمة إلا بنص كما يقول جملة الفقهاء والمشرعين ، ولم يكن هذا بالأمر المعجز ، فكل الإجراءات بربرية منذ لحظة اختطاف المواطن من بيته حتى تقديمه لمحاكمة هازلة مرورا بسلخه قبل ذبحه ، إن جاز التعبير .

وقد شكلت المحكمة (محكمة أمن الدولة العليا) برئاسة الفريق محمد فؤاد الدجوى ، وهو رجل سكير كما قال من عرفوه ، جاهل مغرور وقح كما بدا فى جلسته على منصة القضاء الزائفة ، والقاضى كما عرفه الناس رجل عادل متجرد هادى النفس يزن الوقائع بصدق ويحرص كل الحرص على عدم الخطأ فى العقوبة ، وهو ملاذ الناس عند الشدة وهو الحائل بينهم وبين العنت والقهر ، أما هذا فكان قميئا يحاول تقليد سلفه جمال سالم والمهداوى فى العراق ، ولما كانت تنقصه القدرة والاستطاعة فقد بدا مقززا يثير الغثيان ، حتى النكات السمجة التى كان يطلقها أثناء نظر القضية لم تكن تلقى اهتماما ومجاملة من الحاضرين وجملتهم من جماعة (المصفقين) .

ولست أدرى لماذا تحضرنى ذكرى اغتيال عمر بن الخطاب العظيم فى الزمن القديم ، فرغم ثبوت التدخل من بعض الأشخاص والتواطؤ مع أبى لؤلؤة فيروز المجوسى قاتل أعظم الناس بعد وفاة صاحبيه إلا أنه لم يكن هناك مايمكن عمله معهم ، فقد كان يمكن للخليفة الجديد أن يصدر قراره باعتقال المجوس الموجودين بالمدينة وقد أسلم بعضهم نفاقا

إلا أن هذا لم يكن فى ميزان الدين والشرع وفى ضمير الحضارة والقانون .

وفى الزمن الحديث كانت هناك قصة اغتيال جون كندى أكبر رؤساء الجمهوريات فى العالم فما كان هناك غير اعتقال أزوالد الذى أطلق الرصاص على الرئيس ، وقالوا ليس هناك نص يخص رئيس الجمهورية ، فهو رجل عادى من الناس بالنسبة لهذه النقطة من القانون .

بدأ الدجوى إجراءات المحاكمة بتأنيب المتهمين على ماقترفوه فى حق سيده من آثام ، الأمر الذى أثار دهشة المحامين ، فكأنه بهذا قد وافق النيابة المتهرئة على دعواها . حيال هؤلاء الناس ، وكان كل مايدور لاقيمة له ، فالقاضى يؤنب المتهمين ، والمفروض أنهم أبرياء حتى تثبت التهمة من إجراءات المحاكمة ، أو لاتثبت .

وقد يكون من التكرار أن نعيد ماجاء فى المحاكمات فقد حفلت بها أوراق الصحف فى ذلك الحين ولكن هناك أمورا لم يقدر لها النشر فلعله يكون مفيدا أن نعرض لبعضها فهى خواطر وظلال ، حول المحاكمات التى جرت والقوانين التى سادت ، قضية خطاب من أشهر القضايا التى قدمت آنذاك ، فقد اتفق خطاب – وهو من إخوان الإسكندرية – على اغتيال عبد الناصر ، انتقاما لما حدث سنة (١٩٥٤) وأعد العدة لاغتيال عبد الناصر هو وبعض زملائه ، وبعد مناقشات عديدة استقر الأمر بينهم على استبعاد فكرة الاغتيال هذه ، والانصراف إلى العمل الجاد ، من أجل خير الوطن ورفعة شأنه فى تكريس الأخلاق والقيم الإسلامية فى صفوف الشعب ، كل مع من يعرفهم من زملائه فى العمل وجيرانه فى السكن وأقاربه وكل من يمت له بمعرفة ما ، دونما احتياج إلى تنظيم .

وعلى هذا الأساس فقد خرجت زوجة خطاب ومعها شقيقتها فى ليلة من ليالى الشتاء عام (١٩٥٦) ومعها المعدات الخاصة بنسف قطار عبد الناصر ، وألقت هذه المعدات فى البحر الأبيض المتوسط ، وأسدلوا على القصة ستائر النسيان . ففى منطق القانون العادى يسمى هذا عدولا اختياريا عن الجريمة ، فقد اتفقت مجموعة من الناس على قتل واحد بعينه ، وتم هذا الاتفاق ، ثم عدلوا عن هذا ، وانتهوا إلى إلغاء هذا الاتفاق ولكن خطاب وزملاءه قدموا إلى المحاكمة بتهمة الشروع فى قتل عبد الناصر ، وحكم عليه وعلى مجموعته بالأشغال الشاقة المؤبدة ، رغم أنهم عدلوا عدولا اختياريا كما قلت ، وكانت شقيقة زوجة خطاب فتاة لم تتزوج بعد فى ذلك اليوم الذى صحبت فيه أختها لإلقاء المعدات فى المتوسط . ومرت الأيام بعد ذلك ، وعندما أتى أوان القضية عام (١٩٦٥) جاءوا بها ، وجاءوا بزوجها المذهول ، الذى فهم القصة بالتفاصيل فى عنابر التحقيق المخيفة ، ثم فهم الأمور كلها على مدى السنين التى قضاها فى المعتقل دون محاكمة ، بطبيعة الحال .

أما قضية محاولة اغتيال عبد الناصر فى حد ذاتها فمن سير التحقيق بصحيحه وكذبه لم يثبت أن هناك من ذهب ليقتله ، فغاية مايفهم أن هناك شخصا فكر فى قتل زيد من الناس ، فصدر الحكم ضده بالإعدام ونفذ ، فهو قانون غريب وقضاء أغرب ، يحكم على الناس حكما قاسيا مدمرا بخلجات نفوسهم وبما يدور فى عقولهم من أفكار ، وقد عبر عن هذا حسين توفيق أثناء محاكمته بقوله لرئيس المحكمة :

– لو كنا فكرنا فى انقلاب ضد السماء لما فعلوا بنا مافعلتموه ، وقد ذهب ضحية التحقيق الوحشى الذى أجرته أجهزة الأمن تمهيدا للمحاكمة أكثر من خمسين رجلا من

خيرة الناس أعرف منهم شخصيا : المرحوم زكريا المشتولى ، المرحوم بدر القصبى ، المرحوم أحمد شعلان ، المرحوم محمد عواد ، المرحوم إسماعيل الفيومى ، من هؤلاء من قدر لى أن أشهد استشهادهم كما حدث مع المشتولى والقصبى وشعلان أو أحضر جانبا من هذا الاستشهاد كما حدث مع عواد والفيومى عليهم رحمة الله جميعا . أما ضحايا المحكمة الذين استشهدوا على مرأى ومسمع من الناس فقد كانوا ثلاثة فقط ، سيد قطب ، العالم الشهيد ، والشيخ عبد الفتاح إسماعيل ، والأستاذ محمد يوسف هواش .

كانت المحاكمات أشبه ماتكون بتمثيلية صاخبة هزيلة فى نصها ، سخيفة فى إخراجها يشاهدها جمهور فقد كرامته وعزته ، سلبها منه نظام خانق مقتدر على الإفساد داخل الأرض ، ضعيف أمام العدو (أسد على وفى الحروب نعامة) كما يقول الشاعر ، وقد مثل الشبان الشجعان المؤمنون وفى قلوبهم صلابة ورباطة جأش ، وكانوا يعرفون مايخاله بهم ومايراد منهم . وقد ضربوا أمثلة صادقة وفية ، ورضوا بالقضاء وصبروا عليه وواجهوا المهزلة .

تكلم سيد قطب أمام الدجوى الممثل الهزلى الضعيف الأداء ، وقد أرادوا له القيام بدور القاضى العادل الحكيم وهذا يستدعى قدرا من الحكمة يساعده على أداء الدور ، ولكنه كان خلوا من هذا القدر الضئيل ، تكلم أمامه سيد قطب ، رغم مرضه وسنه إلا أنه قال للدجوى مايعتقد – أمام صحافة أقل مايقال عنها إنها صحافة حقيرة مرتزقة – تكلم عن التعذيب الوحشى الذى تعرض له المتهمون ، فكان رد الفعل فى القاعة نظرات التشفى وقهقهات السخرية من القاضى والجلادين والهتافين ، وكان يعرف مصيره .

وفى مرة من المرات أخذونى مع بعض من الزملاء لنحضر الطعام من المطبخ . وفى الطريق سنحت فرصة للتحدث مع سيد قطب قلت له فيما قلت :

– ماذا تنتظر ؟

فقال الرجل لى بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادئ مطمئن .

– أنتظر الوفود على ربى .

هذا كل ماكان ينتظره ، أما ماقاله فى المحكمة فكان يريد به ذكر شىء للتاريخ الذى مسخه الأقزام ، والذى يأبى إلا أن يشرئب بعنقه مهما تباعدت الأزمان .

* * *

كان للدجوى رئيس المحكمة تاريخ لايشرفه ، وليس فى تاريخه مايشرفه ، كان حاكما لقطاع غزة المحتل أيام الاحتلال اليهودى لها عام (١٩٥٦) وكان غرض اليهود آنذاك هو تهجير المصريين والفلسطينيين من القطاع ليسهل لهم تهويده ، وساعدهم الفريق الهمام فى ذلك ، وصار يحث المصريين والفلسطينيين على مغادرة القطاع ، ثم صار يخطب فى الإذاعة الإسرائيلية ويبين عورات الحكم فى مصر . وقد وصف نفسه بأوصاف قبيحة يندى لها الجبين ، وقد وقف أمامه وتصدى له محمد المأمون الهضيبى قاضى محكمة غزة فى ذلك الوقت واستطاع مع بعض المخلصين أن يفسد خطته وأن يحول بين اليهود وبين تحقيق مايريدون .

وتمضى الأيام ويمثل القاضى الحقيقى متهما أمام قاض مزيف وقح العبارة أمى التفكير ، وأثناء الحوار الهازل الذى أرغم عليه المتهمون ، ضرب القاضى المزيف بيده على المنصة وهو يواجه القاضى الحقيقى الشجاع متهما فى قفص الاتهام :

– هكذا يقول القانون .

وفى هدوء رد عليه المأمون الهضيبى المستشار :

– من قال لك هذا الكلام ؟

– أنا قاضى وعارف كويس مايقوله القانون .

وابتسم المأمون ابتسامة مريرة ساخرة وهو يقول :

– ياسيادة القاضى . ليس فى كلامك هذا شىء من القانون .

وأخفى المحامون ابتساماتهم فى أكمامهم وهم يرون النقط تحت الحروف .

كانوا يهتمون بمظهر الذين يحاكمون ، فيأتون لهم بالملابس النظيفة من بيوتهم ، فيأمرونهم فيلمعون أحذيتهم . وكنا نتفرج على منظرهم خلال الزنازين ونعجب من أناقتهم ومن نظافة ملبسهم ، وكنا نغبطهم أيضا على نزهتهم فى الرواح والغدو مرورا بشوارع القاهرة التى لاتدرى شيئا عما يدور .

ومن طريف مايروى أن أحد المتهمين وهو منصور عبد الظاهر ، وقف أمام القاضى المزيف وخلع ملابسه وأراهم – هيئة المحكمة الموقرة – مانزل به فى ساحة العذاب ، وبطبيعة الحال لم يلتفت القاضى المزيف لما يقوله منصور ومضت الإجراءات إلى نهايتها وعادوا إلى السجن الحربى حيث يقيم الجميع ، وعلى بوابة السجن أمروا بخلع ملابسهم وحملوها على أيديهم ، وفرقعت السياط وعوت الكلاب وساقتهم إلى السجن الكبير ، على النحو الذى شرحت فى مبدأ الكلام ، وانتبهنا فى الزنازين على تلك الضجة العظمى فنظرنا ورأينا ، ويالهول مارأينا ، كان يمثل بهم أشنع تمثيل ، أما ذلك الذى تجرأ فى المحكمة فقد ناله من العذاب الكثير أعظم نصيب ، فقد ازرقت عيناه وانتفختا من هول اللكمات وشج رأسه وناله جزاء الصابرين المعاندين .

وفى اليوم التالى ذهبوا إلى المحكمة كالعادة ، ورآهم كل الناس على الحال التى وصفت وشرحت ، وإمعانا فى الاستهزاء والسخرية قال القاضى المزيف :

– فين منصور عبد الظاهر ؟

ووقف منصور فى القفص بين إخوانه ، ووقف وفى وجهه ماقلت لكم وما يبدو لكل من يراه بوضوح :

– أفندم .

– ماذا بعينك ؟

فتحير منصور . القاضى الجلاد يسأله عما فى عينه ! وحملق منصور فرأى عينيه تلمعان بالسخرية والتحدى ، والصحافة جالسة والله العظيم ، فقال له بهدوء :

– لا شىء .

وازدادت الروح الشيطانية فى نفس القاضى وكان يمكن أن ينتهى الحوار عند هذا ، إلا أنه أضاف :

– ماذا تعنى بلا شىء ؟ وجهك مصاب ، وعينك منتفخة ، هل ضربوك ؟

وارتعد منصور فقد تذكر ماحل به البارحة فى ساحة السجن الكبير . فأسرع قائلا :

– لا لم يضربنى أحد .

– فكيف تفسر مابوجهك من سجحات وكدمات ؟

– فى الحقيقة لست أدرى ؟

– ألا تعرف ماحل بوجهك ؟

وازدرد منصور ريقه وهو يقول :

– نعم .

– استيقظت من النوم فوجدته هكذا ؟

– نعم .

– أم لعلك سقطت على السلم وأنت تصعد أو تهبط ؟

– ربما ، لاأذكر .

كل هذا والحاضرون الجبناء من صحفيين ومحامين يضحكون ويهمهمون فى سعادة كمجتمع رومانى يشاهد الأسود وهى تلتهم النصارى فى الزمن القديم .

كان رئيس الدائرة الثانية الفريق على جمال الدين محمود ، وكان رجلا صالحا طيب النفس ولاأدرى كيف اختاروه لهذه المهمة القذرة ، أما الرجل فقد كان صادقا مع نفسه ، وآلى على نفسه أن يحق الحق ويفعل مايراه منسجما مع ضميره وخلقه ، فكان يفسح صدره للمتهمين ويسمع منهم ويسألهم :

– هل عذبوك ؟ قل الحقيقة لاتخف .

لكن بعد حادثة منصور ماكان لأحد أن يقول الحقيقة ، وكان إذا مارأى علامة فى وجه واحد من الإخوان يسأله عنها وكيف أصيب بها ، ويصر على أن هذه من التعذيب ، ويصر المتهم أنه عومل أحسن معاملة ، واستقر رأى الرجل على تبرئة كل المتهمين ، وكانوا يأتون من المحكمة ويقصون علينا الأنباء فلا نصدق ونقول لهم أنتم مبالغون .

وقبل الجلسة التى عزم الرجل فيها أن يعلن براءة الناس ، جاء نعى الفريق على جمال الدين محمود فى الصحف الثلاث ، وقيل إن صلاح نصر مدير المخابرات قد دس له السم فى الطعام ، وأعيد تشكيل المحاكمة وجاءوا برجل اسمه اللواء حسن التميمى أستاذه الدجوى ، وانسجمت القضية الثانية مع باقى قضايا الإخوان .

كان معى فى الزنزانة طبيب شاب ، جلس يناقش مع إخواننا ليلة ذهابه إلى المحكمة ما ينبغى عليه أن يقوله فى الصباح ، وصاروا يناقشون معه وقائع الأحداث وتفاصيل الأقوال وهذا يقول له قل كذا وكذا ، وذاك يقول : عليك بإنكار هذه النقطة ، وأنا صامت لاأتكلم .

واقترب أخونا الطبيب الشاب وقال لى :

– لم تقل لى ماينبغى على أن أفعل فى الغد .

– لاتفعل شيئا .

– ماذا تعنى ؟

– رفعت الأقلام وجفت الصحف . أرح نفسك فى الغد واجلس صامتا فى القفص ومتع نفسك برؤية هذه المسرحية الهازلة .

– والله هذا هو القول

وأخلد صاحبنا ليلتها إلى سبات عميق .

دخل الأخ حافظ أيوب إلى قاعة المحكمة وافترش عباءته على الأرض وصلى ركعتين ولم يأبه بصوت الحاجب وهو يعلن بأعلى صوته منبها الموجودين :

– محكمة .

وعندما سئل السؤال التقليدى :

– هل لك اعتراض على شكل المحكمة ؟

أجاب الرجل بصوت جهورى سمعه كل من كان فى القاعة .

– إنى أعترض على شكل المحكمة وموضوعها ، فليس لى أن أحاكم بقانون وضعه البشر ، فالحكم لله تعالى ، والفيصل بين الناس هو شرع الله ، وعندما سئل عن رأيه فى الحكومة أجاب ببساطة :

– هى حكومة كافرة .

وكذلك كان حال معظم أفراد القضية الثالثة ، أعلن كل واحد اعتراضه على شكل المحكمة وموضوع القانون الذى يحاكم به ، واعترف أنه ضد النظام ، ويقاومه بكل ما يستطيع ، وكانوا يعودون من المحكمة إلى السجن حيث العذاب والضرب والإرهاب البالغ وكانوا على أشجع مايكون الناس فقد رأوا ماكان من أمر إخوانهم الذين لم يحسنوا القول فى ساحة القضاء وتبين لهم كيف فعل بهم وضربت لهم الأمثال .

وقف المحامى الشاب يدافع عن صديقنا الصيدلى الشاب :

ياحضرات القضاة . هذا الوجه الذى ترونه الآن – ويشير إلى صاحبنا الذى يدافع عنه – وجه قد تمرس بالإجرام . صحيح أنه لم يولد كذلك ، ويعارضه القاضى ليبدى شيئا من النزاهة :

– ياأستاذ دع هذا الكلام للنيابة .

ويمضى المحامى فى مرافعته ناعتا صاحبنا بالإجرام والتآمر ، ولست أدرى كيف ظن المحامى أن هذا دفاع ؟ ويصفر وجه الصيدلى الشاب ثم يهدأ ، ويبتسم وتتسع ابتسامته حتى تملأ وجهه ثم ينفجر فى ضحكة ساخرة مجلجلة مريرة ، بينما يد القاضى غير النزيه تدق بعنف على المنصة ، وعندما انتهت الجلسة همس الصيدلى لوالده من القفص :

– كم أعطيت هذا الرجل ؟

فقال له الأب المكلوم :

– ثلاثمائة من الجنيهات .

وابتسم الصيدلى وهو يقول لأبيه :

– كان يمكن لوكيل النيابة أن يقول هذا دون نقود .

كان الشيخ عبد الحليم سعفان أعمى العينين بصير القلب ، وكانت تهمته أنه يساعد أسر الإخوان الفقراء بقليل مما تسمح له ظروفه ، وكانت المحكمة فى حالة تسامح شديد ، وقد عبرت عن ذلك بأنها عرضت العفو عن المتهم إذا ما أعلن عن ندمه وخطئه وطلب العفو من المحكمة ، ولكن الرجل قال لهم فى عزة الواثق وصدق المؤمن :

كيف تطلب منى أن أعتذر عن عمل قمت به من صميم الدين ، الزكاة من أركان الإسلام ولايعتذر عنها ، وإذا فعلت فكأننى أخرج من الإسلام ، وحاشا لى أن أفعل ، وصدر الحكم عليه بثلاث سنوات جاء بعدها إلى المعتقل ومكث به ماشاء الله أن يمكث .

كانت المحاكمات صورية بالشكل والمضمون كما بينا ، وكانت غطاء للجرائم التى ترتكب وصورة للعالم الخارجى ليظن العدل بطرائق الحكم فى مصر ، أما الحقيقة فقد كانت الأحكام تصدر عن مكاتب المباحث الجنائية العسكرية تحت إشراف العقيد شمس بدران واللواء سعد زغلول عبد الكريم ، ولم يتوفر لأحد أمان فى أى شىء ، حتى لم يستطع أن يقابل أهله ويجلس معهم ويتناول شيئا من طعامهم الذى يحملونه كل يوم ويأخذه الحرس بحجة أنهم سوف يوصلونه لأبنائهم .

ولم يكن هناك قانون اللهم الا نصوص عرجاء عليها مسحة من صياغة القانون ومن الطريف أن هناك واحدا من المتهمين قد حكم عليه بثلاث عشرة سنة ، كأنه قد أخذ عقوبته بدقة وعدل ووضوح ، وكان أجدر بالقاضى ألا يحضر مثل هذا الهراء ، وعلى النيابة ألا تكتب مثل هذا الإدعاء . وكان خليقا بالصحفى الصادق أن يحطم قلمه ويرفض الجلوس فى مقاعد السفهاء .

وكان على عصام الدين حسونه وزير العدل آنذاك أن ينأى بنفسه عن مثل هذا بدلا مما قاله فى زمن أتى [1] بعد ذلك . فقد كانت كل القرارات تصدر موقعا عليها باسمه ولو وضعنا النقط فوق الحروف لسمى الرجل وزير الظلم بدلا من صفة العدل التى أطلقت عليه بغير حق .

انتهت المحاكمات وبقى الجميع فى انتظار الحكم ، وكان الكل يعيش فى طاحونة الطوابير القاتلة تحت حرارة الشمس المحرقة لصيف أتى غاضبا مزمجرا لايفرق بين الظالم والمظلوم .

وفى يوم من الأيام دخل المساعد صفوت وأطلق صفارته فتوقفت الآلة عن الدوران . وتليت قوائم . لقد تكرر نقل المعتقلين الذين لم يقدموا للمحاكمة إلى معتقل آخر وأخذونا صفوفا إلى (الشفخانة) لتوقيع الكشف علينا .

(١) تقدمت مجموعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة القديم وبعض الوزراء منهم عصام الدين حسونة هذا بمذكرة إلى الرئيس السادات بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٩٧٢ ، يعرضون فيها بالظلم الذى وقع على الشعب وكبت الحريات وضياع القانون أيام عبد الناصر ويقولون له فيها : إن هذه هى أسباب نكسة يونيو (١٩٦٧) ويطالبون بتحقيق العدل والديمقراطية وأشياء أخرى منها الاشتراك معه فى الحكم وإعادة مجلس الثورة من جديد .

وأشاعوا أن من يجدونه مريضا أو به أذى من التعذيب فسيبقى بالسجن حتى يشفى ، فكان كل واحد يبدى قوة من نفسه أمام الطبيب الجبان الذى رأى كل شىء دوّن أن يتذكر قسم (أبو قراط) أو تتحرك فى نفسه خلجة من الشعور يعترض فيها على مايرى من عذاب .

إنى أذكر أيام التحقيق يوم أتوا بذلك الطبيب ليفحص شابا فقد رشده من شدة الجلد بالسوط . لقد وضع الطبيب السماعة على قلبه ثم التفت إلى المحقق وقال له :

– قلبه سليم . يحتمل (علقة) أخرى .

خرجنا من السجن الحربى لنواجه الحياة فى معتقلات المباحث العامة ، القلعة فأبى زعبل ، حيث حدث هناك ماحدث ، ثم المستقر والمستودع بمعتقل طره السياسى .

الفصل الرابع عشر

قصة تنظيم الإخوان عام ١٩٦٥

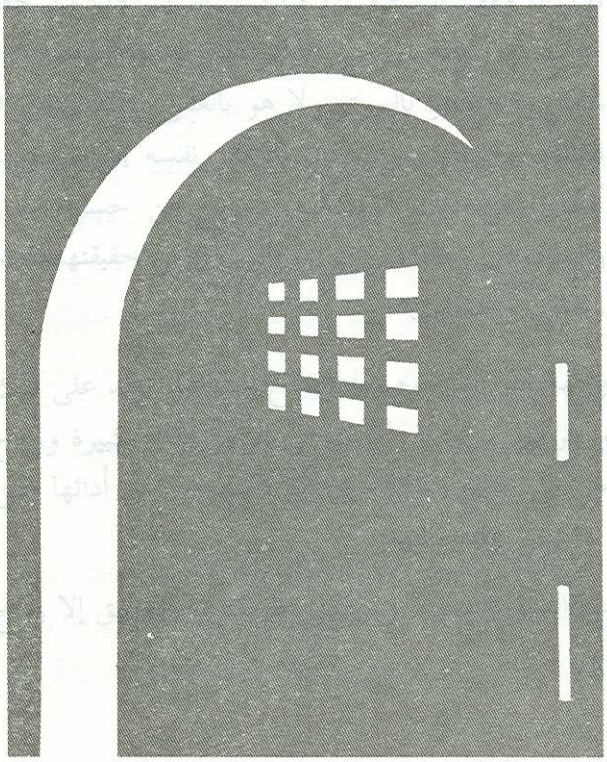

لعل من المناسب قبل أن نترك السجن الحربى إلى معتقل أبى زعبل أن نحكى حقيقة ماحدث من جانب الإخوان ، وهو ماعرفته من أحداث كنت طرفا فيها ، وأحداث أخرى سمعتها من أصحابها خلسة ، أو نمت إلى علمى أثناء التحقيق المميت الذى تم فى القلعة وأبى زعبل والسجن الحربى فى خريف الموت عام ١٩٦٥ ، وإنى أروى حسب ماستقر فى وجدانى وعقلى من أحداث صحيحة .

عرفت المرحوم عبد الفتاح إسماعيل منذ عام ١٩٥٨ حيث كنت أسكن مع إبراهيم يوسف فى رقم ٩ شارع دكرنس مصر الجديدة ، ولاأذكر كيف جاءنا ، المهم أننا وجدناه فجأة معنا ، ويجتمع معنا كل يوم لبحث أحوال المسلمين وسبيل النهوض بهم ، وفى هذا المنزل اجتمع كثير ممن قدر لهم أن يشتركوا فى رسم تاريخ الحركة الإسلامية فى العصر الحديث ، ومنه خرج قادة لها فى العالم أجمع ، مصر والشام والهند والجزائر وغيرها .

وكانت وجهة نظرنا ولاتزال هى تنوير القلوب والعقول بنور الإيمان وفهم الإسلام ، وكنا نرى أن يتم هذا من خلال جمعية أو حزب أو رابطة ، وحتى يأذن القانون بهذا فعلينا أن نتجمع على شكل ما ، لاهو بالسرى ولا هو بالعلنى ، ولا ينبغى أن نتناقض مع القانون والنظام ، وإن كان التفكير نفسه يتناقض معهما . وكانت أفكارنا فى ذلك الوقت هى مزيج من حسن البنا وسيد قطب والمودودى ومالك بن نبى ، فالمسألة فى حقيقتها ذات بعد عقائدى وثقافى وحضارى .

وكانت وجهة نظر المرحوم عبد الفتاح إسماعيل تزيد على ذلك بإنشاء تنظيم حركى سرى ، وكانت فى الرجل طاقة كبيرة وروح عظيمة ويحمل فى جنبيه رسالة يرى أن لامندوحة عن أدائها فهى تؤرقه بالليل وتشغل وقته بالنهار .

ثم اختلفت السبل وصار كل يعمل بطريقته ، ولم تبق إلا روح الأخوة والتزاور .

استقر رأى الشيخ عبد الفتاح إسماعيل – رحمه الله – على إنشاء تنظيم حركى سرى، من خلال تجميع الإخوان من جديد ، وكانت دوافعه واضحة ويعلنها للجميع ، وهى تغلغل الشيوعيين فى المجتمع المصرى ، وأصبحوا هم أصحاب الحظوة لدى السلطان ، وصاروا هم عمد الصحافة وسائر أجهزة الإعلام ، والمهيمنون والمسيطرون على الجامعات والمعاهد ، ومن أراد الوصول اتبع طريقهم ونهج نهجهم ، وانزوى المسلمون بعيدا ، وصارت كلمة الإسلام لاتذكر فى سائر هذه الوسائل ، وأصبح كل مسلم غيور، يشعر أن الإسلام والمسلمين فى خطر ، وأن السلطان يلعب لعبة خطرة، يعتقل البعض منهم ويدين الآخرين ، ويرفع لواء أحمر يلتف حوله فلول التنظيمات التى كان يظن أنها تتلاشى رغم أنها تتكاثر، وتزداد فى الظلام وتحت الأرض ، والمهم هو سيادة المفاهيم (الماركسية)، وغلبتها على المثقفين الجدد ، ومن يريد أن يأخذ مكانه فى المركبة الجديدة التى تجرها خيول السلطة ، وكان الشيوعيون الذين أودعوا سجن المحاريق مع الإخوان فى تلك الفترة هم غطاء الخداع الذى موهوا به على الشعب المصرى .

واستطاع الشيخ عبد الفتاح أن يجمع إليه بعض المجموعات الإخوانية التى كانت منتشرة فى كل أرجاء مصر ، وتعمل بطريقة فردية متفرقة ، واعترض على أسلوبه الكثير ووافقه القليل .

وفى منتصف عام ١٩٥٩، بدأ التنظيم نشاطه بلجنة خماسية تقود العمل ، وكانت اللجنة مكونة من الشيخ عبد الفتاح إسماعيل ، وصبرى عرفة الكومى ، وأحمد عبد المجيد عبد السميع ، ومجدى عبد العزيز ، وعلى عشماوى، وصار كل واحد من هؤلاء مسئولا عن قطاع موضوعى أو مكانى ، واستقرت أوضاع التنظيم وكان عدده صغيرا جدا .

أراد الشيخ عبد الفتاح إسماعيل، أن يضفى على نشاطه ثوب الشرعية فذهب إلى لقاء الأستاذ محمد فريد عبد الخالق ، وعرض عليه فكرة تجميع الإخوان من جديد .

اعترض الأستاذ محمد فريد عبد الخالق على هذه الفكرة فقد كان أحد من يعلمون جمال عبد الناصر جيدا من أيام ماقبل الثورة ، وذهب إلى (المرحوم) منير دلة وقص عليه القصة وانزعج الرجل خوفا وحرصا على جماعة الإخوان من بطش عبد الناصر ، وكان الاثنان يعرفان طبيعة عبد الناصر منذ زمن بعيد .

وذهب كل من الأستاذ محمد فريد عبد الخالق والمرحوم منير دلة إلى مقابلة المرشد العام ، وعرضا عليه رأيهما وخوفهما من الضرر الذى سيلحق بأفراد الجماعة وبطش الحكومة القوى ، وأنها لن تتسامح فى معاملة أعدائها ، وتجميع الإخوان لن يفيدهم بأى حال . وفى مجتمع تحكمه الشرطة – مثل مصر – لابد أن تتسرب أنباء هذا التنظيم ، ولن يبطشوا بأفراده فقط ، بل سيشمل البطش كل من له صلة بجماعة الإخوان ، حتى الذين فى السجون سوف يلحقهم ضرر بالغ من نشأة هذا التنظيم .

وترافع كل من فريد عبد الخالق ومنير دلة بحرارة أمام المرشد العام المحددة إقامته وهما يقابلانه بصعوبة شديدة خوفا من رقابة الحكومة وطلبا منه فى إلحاح أن يستدعى عبد الفتاح إسماعيل وينهاه عن هذا .

وطمأنهما الأستاذ الهضيبى ووعدهما خيرا فانصرفا شاكرين واثقين من سلطان المرشد العام على كافة أفراد جماعة الإخوان .

وفى هذه الأثناء كان الشيخ عبد الفتاح إسماعيل يرتب لقاء مع المرشد العام عبر الحاجة زينب الغزالى التى دفعت ثمن هذا غاليا من التعذيب فى السجن الحربى فيما بعد .

وتم اللقاء وعرض فيه الشيخ عبد الفتاح وجهة نظره بحرارة بين يدى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى ، وتكلم وشرح : كيف تسير البلاد خطوات مسرعة نحو الإباحية

والتحلل وفساد الأخلاق وانتشار الرشوة ، ولم يعد أحد يهتم بشأن الدين أو الدنيا والحكومة تشجع على هذا ، وفقد الشباب صلتهم بدينهم ، وصاروا يتخذون المفسدين قدوة لهم ، وانعدم المثل الأعلى ، الأمر الذى يهدد دعوة الإسلام بالضياع من مصر بشكل نهائى ، وهذا أمر يدفع كل مسلم غيور على دينه على تحقيق بعض التماسك وصبغ الشباب بصبغة دينية ، وربطهم بالإسلام على نحو ما ، من خلال برامج الثقافة والتربية الإسلامية ، ولن نتعرض لنقد الحكومة ولن نعاديها ، ولن تكون هى مشكلتنا .

وكان المرشد العام صامتا طول الوقت يستمع فى هدوء إلى كلام الشيخ عبد الفتاح .

ولما رأى المرشد ينصت إليه بإمعان ألقى له بقنبلته الأخيرة :

– يافضيلة المرشد إن الشيوعيين لن يسكتوا حتى يستقيم لهم حكم مصر ، وهم يهادنون عبد الناصر تمهيدا لخلعه ، ويتولى سكرتير الحزب الشيوعى مكانه فى حكم مصر بعد تكوين جبهة من كافة الأحزاب والتجمعات الشيوعية ، وهم يسرعون الخطا فى تحقيق ذلك والطريق أمامهم ممهد ومفتوح .

وسكت قليلا ليرى تأثير كلامه على المرشد العام ، وكان الرجل صامتا جامد التعبير فقد جلس على كرسى القضاء مايقارب أربعين عاما ، فهو معتاد على سماع المرافعات ووزن الأمور بدقة ، ولما رآه الشيخ عبد الفتاح صامتا استمر فى حديثه :

– فى هذه الحالة ، لو أمسك الشيوعيون بالحكم فسوف يقومون بتصفية دموية ، ولن يكون أمام الإخوان وغيرهم من المسلمين غير الاستسلام لسكين الشيوعيين الحمراء ، وعندها لن نستطيع شيئا ، الرأى يافضيلة المرشد أن نتحد ونتجمع ونكون على استعداد لمواجهة كافة الظروف التى يمكن أن تكون ، ولايجب أن نفاجأ بهذا الخطر ونحن نعرفه ونتوقعه .

ماقولك يافضيلة المرشد ؟

وسكت الرجل طويلا هذه المرة ، وكان قليل الكلام فإن نطق فكلماته توزن بميزان الذهب ، وكأنه يقارن بين ماقاله له فريد عبد الخالق ومنير دله وبين كلام الشيخ عبد الفتاح الثائر المتوهج الممتلىء حماسة وإيمانا ، وأخيرا رفع الأستاذ الهضيبى رأسه إليه ووجه له عبارة واحدة انصرف على أثرها بعد أن قبل يده :

– اسمع ياشيخ عبد الفتاح : تصرف على ضوء قرار حل جماعة الإخوان الذى أصدرته الحكومة فى يوم ما .

اعتبر الشيخ عبد الفتاح هذه العبارة التى نطق بها المرشد العام إذنا له بالعمل على المضى قدما فى التنظيم الذى يريد ، ولم يرد أن يناقشه أو أن يسأله التفسير ، أو أن يدخل معه فى تفاصيل ، فهو لايريد أن يحرجه أولا ، ويخشى أن يفسر الرجل العبارة على غير مافهمها عبد الفتاح اسماعيل .

وكان سعيدا فرحا بهذا الإذن الذى يمكن أن يستخدمه فى تجميع الإخوان .

وهو يستطيع أن يقول فى ثقة لمن يعترض :

– عندى تفويض من المرشد العام لتجميع الإخوان .

وبالتأكيد لن يلقى معارضة كبيرة فالجماعة تثق بمرشدها ، وتراه مثلا فى الصمود ، وهو حكيم صابر بعيد النظر لايرضى لجماعته أن تتقاذفها الأهواء والمحن والأنواء ، كان الشيخ عبد الفتاح عضوا فى اللجنة الخماسية ، وهو الأمير الفعلى وإن لم ينص على ذلك صراحة ، وهو الطاقة المحركة التى تجوب البلاد شرقا وغربا فى غير كلل أو ملل وهو الفقير الغنى ، التاجر الذى يهمل تجارة الدنيا من أجل تجارة تنجيه من عذاب أليم يرتدى ثوب المبشرين ، ويحمل روح الثوار ويضع على كتفيه عباءة الأنبياء . وكان لايبخل بوقته فهو كله

للتنظيم ، ولابماله، فماله كله من أجل تحقيق الغاية ، وهو يسافر خارج مصر يبحث عن فلول الإخوان الهاربة يطلب منهم النصرة والمؤازرة . وكانت روحه هى التى تبعث الدماء حارة فى شرايين التنظيم ، وكان الرجل على إصرار كامل أن يصل الأمر مداه وغايته ، ويستوى فى نظره الموت والحياة ، والشهادة أحب إليه من النصر وكان يردد هذا دائما .

كان غاية ما يمكن أن يقدمه المرشد العام هى تلك العبارة التى قالها له ، والرجل شيخ فانٍ مريض محاط بالأرصاد والعيون والاتصال به يكاد يكون ضربا من المحال فى دولة قد جعلت التجسس هو شعارها ودينها ، وكان الشيخ عبد الفتاح حريصا على عدم إشراك المرشد فى أكثر مما قاله له ، وهناك الحرس القديم من أعضاء مكتب الإرشاد الذين أفرج عنهم وخرجوا من السجون وهم لايعتمدون هذه الخطة ، ولايمكنهم مراجعة المرشد فى كافة التفاصيل ، وكانت قضية التنظيم تشغل بال الشيخ فى ليله ونهاره .

– وفكر فى أن يضع اسما لامعا وشخصية كبيرة على رأس التنظيم ، شخصية جديدة لم تجرب السوط أو نهش الكلاب فى ساحة السجن الحربى ، شخصية تبعث الدماء حارة مرة أخرى حتى يأذن الله بفرج ، ويتسلم الأمر أصحابه .

وطرحت عليه الحاجة زينب الغزالى : اسم عبد العزيز على .

وعبد العزيز على أحد أبطال ثورة ١٩١٩ ، وكان عضوا فى الحزب الوطنى القديم واختير وزيرا فى أول وزارة فى عهد الثورة ، ثم أرسلوه إلى البيت مع من أرسلوهم .

وفى منزل الحاجة زينب : التقى عبد الفتاح إسماعيل الشاب المتدفق قوة وحماسة بعبد العزيز على فى سنه الكبيرة وتؤدته البالغة ، وتكلما وتفاهما ، وانتقلت حماسة الشاب إلى الشيخ ، وأعلن موافقته الكاملة

على كافة أفكار عبد الفتاح إسماعيل المدرب الحذر الذى وهب من الله حاسة تنظيم الجماعات وتدريبها وقيادتها .

وطلب عبد العزيز على كشفا بأفراد التنظيم ، واستيقظت حاسة الحذر فى نفس عبد الفتاح اسماعيل وقال :

– هم مجرد مجموعة لاتتخطى أصابع اليدين ، نحن فى دور التكوين ، ولكنى أعرض طائفة منهم إن شاء الله .

وجاءه ببعض أفراد اللجنة الخماسية فى بيت زينب الغزالى . وهو أمر جعلها محور كل سؤال فى التحقيقات بعد ذلك .

وتكلموا بعد أن تعارفوا ، وقدمه الشيخ عبد الفتاح على أنه رئيس التنظيم الجديد ، وسوف نناقش طريقة الاتصال به ، وعلينا عرض كل شيء عليه وأن ننفذ أوامره دون إبطاء ، وأمن الجالسون على كلامه .

كانت فكرة عبد الفتاح إسماعيل أن يكون عبد العزيز على فى مقام من يملك ولا يحكم ، يصير رئيسا شرفيا للتنظيم ، واجهة عاقلة ، وربما يوحى للناس أن هذا قد تم برأى المرشد ومشورته .

وفى اجتماع بعد ذلك ألقى عليهم عبد العزيز على محاضرة طويلة عن فساد الحكومة وبين أن سر فسادها يكمن فى رئيسها عبد الناصر ، وأن الرأى هو التخلص منه بالقتل ، وتلفت أعضاء اللجنة إلى بعضهم ، وأيد وجهة نظره واحد فى حماسة شديدة هو على عشماوى .

وسأله عبد الفتاح اسماعيل :

– وكيف يتم قتل عبد الناصر ؟

وأجاب عبد العزيز على :

– بالسم !

وتعجب الحاضرون وواصل عبد الفتاح إسماعيل حديثه :

– وكيف يتم قتله بالسم ؟

- لابد من تدبير لهذا .
- وكيف يكون هذا التدبير ؟ وكيف نوصل السم إلى طعامه ؟
- هذا أمر يحتاج إلى تدبير وتفكير .
- وبعد قتله ؟
- قتله هو غاية فى حد ذاتها .

وانصرفوا إلى اجتماع آخر فى نفس المكان ، منزل الحاجة زينب الغزالى .

وفى هذا الاجتماع أشار عبد العزيز على أن عنده من المعلومات مايدل على أن هناك تنظيما كبيرا وهو يصر على معرفة كافة أفراده ، وأكد عبد الفتاح اسماعيل أن هذا غير صحيح ، واستسخفوا فكرة قتله والطريقة التى اقترحها ، وكان قد اقترح سبعة من معاونى عبد الناصر . وسأله عبد الفتاح إسماعيل عن هؤلاء السبعة من يكونون ، فقال عبد العزيز على :

سوف نحددهم بعناية فائقة .

وكان هذا الاجتماع هو آخر اجتماع بينه وبينهم .

واستقر رأى اللجنة الخماسية على تفويض عبد الفتاح اسماعيل على اختيار رجل له مايؤهله أن يكون على رأس التنظيم .

وصارت هذه الحكاية هى قضية الرجل .

وكان رحمه الله متوقد الذهن عظيم الحماس ، وهداه تفكيره إلى صاحب (فى ظلال القرآن) الشهيد سيد قطب ، ولكنه فى السجن يقضى فترة العقوبة ، واستطاع ببراعته الفائقة أن يصل إليه ، وكان هذا وقتها يعد ضربا من المحال .

وكان العلامة سيد قطب قد وهب نفسه لتفسير القرآن والحياة فى جوه وصوره وأخيلته وإيحاءاته وقد زادته مرارة السجن حرارة ،

وألهبت روحه أشواق الآخرة فهو رجل مريض زكى القلب ثاقب النظرة إلى مافى القرآن من معان خفية وإشارات لطيفة ، وليس أمامه غير ماوضعوه فيه يتعلم ويعلم فى صبر وأناة وثقة من صحة الطريق الذى يسير فيه ، ليس عنده مايخفيه فهو بين أنياب الأسد حقيقة لامجازا . وهو فى قبضة حاكم شرس لايقبل غيره على الساحة .

وطلب منه الشيخ عبد الفتاح أن يكون أبا روحيا لجماعة من الإخوان فى خارج السجن تريد مايصحح مفاهيمها ، ويهديها إلى الصراط المستقيم ، وأنهم يتوسمون فيه هذه القدرة . ورحب الرجل بما قاله عبد الفتاح إسماعيل ، وصارت كتاباته تأخذ طريقها إلى التنظيم تهريبا من السجن قبل أن تذهب إلى المطبعة ، وأخذت أفكار (الشهيد) سيد قطب طريقها إلى تنظيم الإخوان الرسمى لأول مرة ، حتى صارت بعد ذلك الطابع الأساسى لفكر الإخوان المسلمين .

وأفرج عن (الشهيد) سيد قطب هو وزميل الزنزانة الشهيد محمد يوسف هواش بتدخل من الرئيس عبد السلام عارف لدى عبد الناصر ، وكانت نواة التنظيم قد تكونت وهى لاتعدو مجموعات صغيرة تعكف على قراءة كتب سيد قطب ، وأبى الأعلى المودودى ، ومنهجا بسيطا فى الفقه الإسلامى .

وكانت مهمة عبد الفتاح إسماعيل كبيرة وشاقة ، فهو أمام تيار يحاول تجنبه وحماية التنظيم منه وهو يتمثل فى حرس الإخوان القديم فريد عبد الخالق ، ومنير دلة ، وصالح أبو رقيق ، وعبد القادر حلمى المستشار ، وهم الذين يعملون كل حساب للعواقب ، ويريدون تجنب المشكلات ، ولهم فى نفس الوقت النفوذ العظيم على نفوس الإخوان ليس فى مصر وحدها ، بل فى كل مكان ترتفع فيه عبارة « الله اكبر ولله الحمد » . وعليه فى نفس الوقت أن

يجذب أكبر عدد من شباب الإخوان إلى التنظيم ، ذلك دون أن يعرفوا شيئا عن طبيعة القيادة ومدى الاختلاف حول جدواه من عدمه ، وهى مهمة ليست باليسيرة ، وعليه أيضا أن يضم أفرادا جددا إلى التنظيم لم تكن لهم علاقة بجماعة الإخوان من قبل ، وجماعة الإخوان جماعة غريبة عجيبة فى تقاليدها غير المعلنة والتى أملتها عليها الظروف والحوادث ، فلا ينضم إليها جدد إلا فى الحوادث والملمات ، ثم تبقى بعد ذلك مغلقة على نفسها لاتقبل جديدا فى صفوفها ولايتم هذا إلا مع تغير الأزمنة وعلاماتها .

ويجب على عبد الفتاح اسماعيل أن يصنع نظام أمن محكم لحماية الأفراد من أعين الشرطة الساهرة على أمن الدولة وشخص الزعيم ، وتحمل الرجل كل هذه المهام صابرا دءوبا . وفى سفريات عبد الفتاح إسماعيل إلى خارج مصر التقى بكثير من الإخوان الهاربين من مصر ، وهؤلاء كانت لهم آراؤهم المختلفة وكانت آفاقهم أوسع وأكثر رحابة ، وأكدوا عليه ضرورة المال والسلاح ليتمكنوا يوما من الدفاع عن أنفسهم ، فالروس قادمون لامحالة ، وسوف يأتى اليوم الذى ينبغى عليهم الحرب والقتال من أجل الحفاظ على استقلال مصر وعروبتها وإسلامها ، ولكنها خطوة سابقة لأوانها ، وربما يأتى وقتها يوما .

ولم تكن فكرة الانقلاب وتغيير نظام الحكم بالقوة تداعب خيال أحد ، وكانت غاية مايرجونه هو إعداد المسلم الإعداد الصحيح ليتحمل أعباء سوف يتعين عليه حملها يوما .

وبحكم طبيعة المجتمع المصرى فالمراقب يجد أن حيازة السلاح أمر طبيعى وعادى وعلى الأخص فى القرى والكفور والنجوع ، وكان من الطبيعى أن تتواجد بعض قطع السلاح فى حيازة بعض الأفراد ، وعلى وجه التحديد من أولئك الذين يسكنون الأماكن البعيدة عن القاهرة ، والذين يعملون فى بعض المهن

الخاصة مثل التجارة والزراعة ، أما طبقة المثقفين وكبار المتعلمين الحاصلين على الشهادات العلمية العالية ، فلم يثبت أن أحداً قد فكر فى هذا ، ولايمكن اعتبار أفكار بعض المغامرين الحالمين فى الإعداد العسكرى لعدد أقل من الخمسين معياراً أو أساساً للحكم على السياسة العامة للتنظيم .

وليس دفاعا عن تنظيم عبد الفتاح إسماعيل ، ولكنه تحليل للوقائع من منظور رؤيا واضحة ، بعد أن شاهدنا وعاينا كل شىء وكل ماضبط من سلاح فى حوزة أعضاء التنظيم أقل مما هو موجود فى حيازة إقطاعى صغير لاتتجاوز أرضه الخمسين فدانا من الأرض المزروعة .

وكانت هناك عروض جدية من بعض المغامرين المقيمين فى السعودية فى توريد سلاح لم تعرف طبيعته أو كميته عن طريق بلدة « دراو » فى الصعيد ، وطلب تأجيل هذا لأن الاستفادة منه غير واردة فى تلك الأيام على الأقل ، وربما يكون ذا فائدة عندما يحدث غزو سوفيتى أو يتقلد الشيوعيون مقاليد الحكم ففى هذه الحالة فقط يكون للإخوان وسائر أفراد الشعب الحق الشرعى للدفاع عن النفس .

وسارت الأمور فى منوال واحد ، أسر إخوانية ، يجتمعون ، يقرءون القرآن والمأثورات ، يحفظون بعض الأحاديث النبوية ، وكتب سيد قطب التى تأتى من المطبعة أو قبل أن تذهب إليها .

أتى عام ١٩٦٥ بعد نكسات عسكرية وسياسية مريرة منيت بها حكومة عبد الناصر وتردد أن هؤلاء الناس لايصلحون للحكم ، وزادت سخرية الشعب منهم ، وأطلقوا النكات عليهم فى كل مكان ، فحرب اليمن قد ألبت العالم جميعه ضد مصر ، هذا عوض عن الهزيمة العسكرية النكراء هناك ، ولم ينجحوا إلا فى حرق

القرى وحصد الأهالى بالرشاشات من الطائرات ، ولاتقدم يذكر على الجبهة هناك ، وهناك من المصريين من رفض القتال ، وسمعت الشيخ عبد الفتاح إسماعيل يفتى مرة بأن الذى لا يمتنع عند تنفيذ الأوامر الصادرة إليه فى قتل المسلمين ، وينفذها فإنه يموت على الكفر ، ومن يمتنع عن تنفيذها ويحاكم ويعدم فإنه يموت على الإيمان وإعدامه شهادة ، وكان هناك من يمتنع ، وكان هناك من يقدم إلى المحاكمة ، وكان هناك من أعدم .

وخسرت مصر فى هذه الحرب الكثير من الأموال ، ولعلها قد خسرت جميع الاحتياطى الذى صنعته أسرة محمد على ، وكانت تكاليف الحرب فى اليوم الواحد تزيد عن مليون جنيه استرلينى ، وباعوا رصيد الذهب ، وبدأ طبع النقود ربما للمرة الأولى فى تاريخ مصر دون غطاء ذهبى ، هذا عدا الخسائر الكبيرة فى الأرواح وقد حاولوا كتمانها فى أول الأمر ، ثم طفح الكيل وزاد عدد القتلى ، وعرفت مصر كلها بحجم الهزيمة النكراء فى تلك الحرب التى ليس لأحد فيها « ناقة ولاجمل » .

وزاد الطين بلة أن الحكومة كانت تدفع مبالغ مالية كبيرة للضباط كمكافآت ومرتبات للضباط والجنود ، وكانت طائرات التموين تصنع جسرا جويا بين مطار القاهرة ومدن اليمن تحمل الخضروات والفواكه والبقول وحتى الخبز ، وزاد الطلب على السلع بعد ازدياد النقود فى أيدى الناس ، وارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا ، وجاءت أزمة الأرز وهو غذاء يعتمد عليه المصريون اعتمادا أساسيا ، واستغل عبد الناصر الأزمة فى الإطاحة بحكومة زكريا محيى الدين .

وكانت حكومة مصر آنذاك تعتمد اعتمادا كبيرا على سمعتها بين شعب يخشاها ويهابها ويعمل لها ألف حساب ، فهى حكومة تكره مواطنيها ، ومواطنوها يلعنونها فى صباحهم ومسائهم . وكانت النكت تسير بين الإسكندرية وأسوان ربما فى أقل من نهار واحد .

وكان لابد من عمل مايرد الناس إلى صوابهم ، بعد أن صاروا يرددون (النكت) على رئيس الدولة والنظام بشكل عام ، وعن قائد الجيش الذى يجتمع بقواده لاليتدارسوا الخطط العسكرية ولكن ليدخنوا الحشيش فى جو من (السلطنة) والانسجام ، وربما يأتون بأحد النجامين والعرافين ليقرأ لهم الطالع ويخبرهم عن الحرب الدائرة فى جبال اليمن وأى القوات يحركون .

وتأديب الشعب يأتى من خلال تأديب الإخوان .

ووزعت المنشورات فى البلاد ، كتبها وطبعها الشيوعيون ومهروها بتوقيع الإخوان المسلمين ، وظهرت فى الأفق نذر الشر والخطر .

هل تم اتفاق بين الحكومة وبين الشيوعيين على هذا ، أم أن الشيوعيين أرادوا أن ينبهوا إلى الثارات القديمة ، وكأنهم يقولون هؤلاء هم كبش الفداء الذى أعدته الطبيعة الرحيمة لكم .

فى تلك الأثناء كان الإخوان المسلمون يأخذون مآخذ شتى فى النشاط ، وخرج جماعة من الإخوان القدامى ، لم يعجبهم موقف الحرس القديم ، ولم يوافقوا أيضا على خطة الحرس الجديد ، وقالوا نخرج فى سبيل الله مثلما تفعل جماعة التبليغ فى الهند .

وظهر زعيم جديد هو الحاج فريد العراقى زعيم جماعة التبليغ المصرية ، والإخوانى السابق ، وسار على طريقة حسن البنا من خلال جماعة التبليغ ، فهو يجوب البلاد شرقا وغربا ومعه التلاميذ وكانت أكثرية من انضموا إليه من أفراد الجماعة الذين يريدون النجاة بأنفسهم من تلك المدلهمة .

واكتظت جماعة التبليغ بأفراد الإخوان القدامى ، وذهب الحرس القديم إلى الحاج فريد عراقى يثنونه عن هذا النشاط فقال لهم :

– أنا لا أفعل شيئا على الإطلاق فى الخفاء ، ولاأستطيع النكوص ، فأنا رجل صاحب تاريخ قديم ولاأستطيع التنصل منه .

وردد الناس فى كل مكان أن جماعة الإخوان قد عادت إلى الظهور من جديد ، وبذل تنظيم الشيخ عبد الفتاح جهده لجذب شباب التبليغ إلى صفوفه . وكان العكس يحدث ، وصار شد وجذب بين الفريقين ، مع تصاعد الشائعات .

وكان هناك رجل اسمه زغلول عبد الرحمن يعمل ملحقا عسكريا بسفارة مصر فى لبنان ، وعندما عرضت سوريا شكواها على مجلس الجامعة العربية فى شتورة عام (١٩٦٢) ، عن جرائم الحكم المصرى التى وقعت فى حق الشعب السورى أيام الوحدة ، تقدم زغلول عبد الرحمن إلى المؤتمر ، وقدم للمؤتمرين كل الوثائق التى تؤيد كلام السوريين ، وتدين النظام المصرى فى جرائم تجسس وتخريب واغتيال ضد جميع دول المنطقة ، ومن المناسب أن نذكر أن زغلول عبد الرحمن هذا من رجال الصف الأول للثورة ، ولاأطيل فقصة الرجل معروفة ، فقد طلب حق اللجوء السياسى إلى سوريا (وتلطم) فى بلاد الدنيا ، ثم جاءوا به فى صندوق كما سمعنا ، وكان ذلك فى عام (١٩٦٥) ، وقدم إلى المحاكمة ، بعد تحقيق تخلله تعذيب نعرفه ، وتكلم عن نشاط الإخوان المسلمين فى أوروبا ، وأنها جماعة كبيرة ينبغى أن يعمل لها ألف حساب .

ولففت المخابرات المصرية قضية تخابر لمصطفى أمين ، واعتمدت فى هذا التلفيق على أحاديث دارت بين الملحق الدبلوماسى الأمريكى ، والكاتب الكبير ، وسجلت هذه الأحاديث ، ومما دار فى هذه الأحاديث سؤال من الدبلوماسى الأمريكى حول وضع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ، الأمر الذى يبرر أهمية هذه الجماعة واهتمام الساسة بأخبارها ونشاطها .

وسمعنا أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قال مامعناه إن:الإخوان المسلمين يتطلعون للتعاون مع كمال الدين حسين الذى كان من رجالهم يوما ، وهو أحد أعضاء حكومة الثورة ، والذى أخرجه عبد الناصر من الحكم ، لاعتراضه على اشتراك مصر بقواتها فى قتل الشعب اليمنى ، على نحو ماقيل فى تلك الأيام .

وسمعنا أن المخابرات السوفيتية التى تقدم النصح دائما للحكومة المصرية والأجهزة التابعة لها قد تقدمت بنصيحة ، تقترح فيها النظر بعين الاعتبار إلى نشاط الإخوان المتزايد فى سائر أنحاء البلاد .

كان قد زارنى أحد الأصدقاء فى شهر ابريل أو مايو من عام ١٩٦٥ وله قريب يعمل فى المخابرات المصرية ، وقال لى :

– إن الحكومة قد قررت أن تؤدب الشعب .

وقلت له :

– أكثر من هذا الأدب ؟

فقال :

– لقد كثر اللغط وضاعت هيبة الحكومة ، فهى تريد أن تؤدبه أدبا لا ينساه ، وسيتم هذا فى شخص جماعة الإخوان المسلمين ، وسوف يتم هذا فى خلال شهرين أو ثلاثة .

وهناك قصة طريفة مسرحها قرية (سنفا) مركز ميت غمر دقهلية .

كان يعيش فيها شاب طيب متوسط الحال يعمل مدرسا فى إحدى المدارس الابتدائية هناك اسمه (سالم شاهين) ، ولهذا الشاب شقيق يعمل صولا بالقوات المسلحة ، وخدم فى الحملة التى جردتها الحكومة لتأديب شعب اليمن الشقيق ، ومن هناك كان يأتى بالهدايا والطرائف والعجائب ، فيتحف أخاه سالما بها ، وكان سالم يفرح كثيرا بهذه الهدايا ، ويريها لأصدقائه وكل من يلقاه ممن

يعرفهم ، ويراها أشياء عجيبة جدا مهما كانت ، لأنه لم يغادر القرية على الإطلاق بعد أن تخرج من مدرسة المعلمين ونال كفاءة التعليم من المركز ، وعاد إلى القرية ليخلد فيها حتى يأتيه الموت .

وكان مما جاء به شقيقه من العجائب واللطائف « قنبلتان » للصوت ، أوصى شقيقه أن يحتفظ بهما حتى يأتى يوم زفاف فيطلقهما ، ومن ثم يدخل البهجة على النفوس من أهله وأصحابه .

واحتفظ سالم بالقنبلتين فى زاوية من زوايا المنزل ، وعاد أخوه عبد اللطيف إلى اليمن ليأتى منها بالمزيد .

وكان سالم شغوفا بالتدخين ، ولايساعده راتبه الصغير فى تحقيق هذه المتعة بشكل يرضيه ، فكان يستدين حتى يحققها ، وهكذا ظل عليه دين مكسور دائما ، فهو يؤجله كل شهر .

وكان يشترى الدخان من محل بقالة صاحبه رجل طيب مسلم اسمه : (يوسف القرش) وتراكمت الديون على سالم ، وصار يحاول سدادها فى أقساط حتى تبقى عليه سبعة وتسعون قرشا ونصف (حسب ماجاء فى المحاضر الرسمية) .

وصار سالم يماطل يوسف ، وكل يوم يقول له فى الغد أعطيك ، ويأتى الغد ولايعطيه شيئا ، وامتنع يوسف عن بيع الدخان له بالأجل ، وسالم لا يستطيع الاستغناء عن التدخين ،وراودته فكرة رأى أنها ربما تخلصه من الدين ، وربما يحصل من خلالها على مزيد من الدخان .

واسرع سالم شاهين إلى محل يوسف القرش ودار بينهما الحديث التالى :

– اسمع يايوسف . هل تريد أن أبيعك شيئا بدلا من الدين الذى علىَّ ؟

– وماهو ؟

– قنبلتان .

وتوتر يوسف القرش وانتبه :

– ماذا تقول : قنبلتين ؟ !

– نعم . قد أتى بهما أخى عبد اللطيف من اليمن ، ويقول إنهما تحدثان صوتا عظيما ولاتقتلان أحدا ولاتجرحانه ، هه ، ماذا قلت ؟ .

– أراهما أولا .

– أعطنى إذن سيجارة حتى أعود .

– لو أعجبتنى القنابل أعطيتك السجائر .

وأسرع سالم شاهين إلى منزله وجاء بالقنبلتين ، وفى طريق العودة إلى محل يوسف القرش صار يشرح لكل من يقابله مزايا القنبلتين ، وماذا تصنعان عندما يفجرهما ، وأنه ذاهب ليوسف القرش ليعطيهما له بدلا من الدين ويعلق ساخرا لمن يتفرج على القنابل :

– أهبل وعبيط ، ماذا سيفعل بهما ؟

وقبل أن يصل إلى محل يوسف القرش كانت القرية كلها قد علمت بالقصة . وكان نجل العمدة فى القرية على خلاف مع يوسف القرش ، ورغم هذا فهو لايقدر على مقاطعته لأنه البقال الوحيد فى القرية ، وأرسل خادمه ليشترى له أربع ورقات « معسل » وتأخر الخادم ولما عاد عنفه سيده ، فاعتذر له بأن سبب التأخير أنه وقف يتفرج على القنابل عند الدكان ، وحكى له كيف ساهم يوسف فى ثمنها وأخذها بدلا من السبعة والتسعين قرشا ونصف وزاد عليها سيجارة واحدة .

ووجد نجل العمدة الفرصة قد سنحت للانتقام من يوسف القرش فأسرع إلى كاتب عمومى متخصص ليكتب بلاغا باسم رئيس المدينة نكاية فى يوسف .

ومن عجيب الصدف أن هذا البلاغ وصل إلى رئيس المدينة فى اللحظة التى كان يزوره فيها واحد من أساطين المباحث الجنائية

العسكرية وكانا صديقين فكل رؤساء المدن فى تلك الأيام ، ولعل هذا حتى الآن ، من حرس الثورة إما اشتركوا فيها ، أو يقومون على أمنها .

وقرأ رئيس المدينة البلاغ وضحك عاليا ، وقال له صديقه من المباحث الجنائية العسكرية :

– ماذا يضحكك ؟

ورد عليه رئيس المدينة وهو مايزال يضحك :

– واحد كاتب بلاغ يقول فيه : إن فيه بقال بقرية سنفا بيتاجر فى قنابل ، تصور ، زى ماتكون قوطة .

وضحك الاثنان ، بينما أخذ القصة ضابط المباحث الجنائية العسكرية مأخذاً جاداً .

وفى هذه الليلة السوداء كان يوسف القرش معلقا والسياط تنوشه من كل جانب يسألونه عن الإخوان والسلاح والتمويل والتنظيم ، وجاءوا بسالم شاهين ، ومن اليمن طيروا عبد اللطيف شاهين ، ودارت رحا العذاب هائلة قاسية مروعة وكان ذلك فى قصر عابدين ، حيث مبنى المباحث الجنائية العسكرية .

وأشرف يوسف القرش على الموت من الضرب بالسياط .

وقد قدر لى أن أراه بعد ذلك بشهور فكأنه قد ضرب منذ ساعة فقط ، كانت جروحه رطبة طازجة مازالت على حالها الأول .

فى الحقيقة بدأت مأساة الإخوان بضرب يوسف القرش فى قصر عابدين حيث كان يقيم الخديو إسماعيل رحمه الله وطيب ثراه هو وآباؤه وأبناؤه الكرام البررة ، إذا قارنا بطغيان وطغيان من جاءوا بعدهم .

وعندما يجتاز المضروب حاجز الألم فهو يقول مايفهم ومالا يفهم ، كانوا يسألونه عن الإخوان وصلته بهم ، ومن يعرفه منهم ، والرجل لايعرف كيف يجيب ولايدرك الطريقة التى يخرج بها سالما من هذا الجحيم ، وأثناء الضرب ذكر اسما كان الخيط لكل شىء .

حبيب عثمان صاحب ورشة ميكانيكية بالقاهرة .

وماكان يوسف القرش يعلم شيئا عن حبيب عثمان ووضعه فى التنظيم الجديد ، وماكان يعرف أن هناك تنظيما جديدا ، ولكنها الأقدار تجرى على الناس بما تشاء .

كان حبيب عثمان عضوا فى أسرة يرأسها مصطفى الخضيرى الذى يتبع مباشرة لعلى عشماوى عضو اللجنة الخماسية ، ومسئوليته الموضوعية والمكانية كانت السلاح والقاهرة ، وكان قد تم تقليده المنصب منذ أيام بناء على اقتراحه .

فى صيف عام ١٩٦٥ كان الشهيد سيد قطب يجتاز خطواته الأولى نحو الحرية ، بعد أن أفرجوا عنه بوساطة عبد السلام عارف رئيس العراق ، فهو حديث عهد بكل شىء فى مصر ، بدءاً من الحكومة وانتهاء إلى التنظيم الذى أعده عبد الفتاح إسماعيل الشهيد ، وكان قد بدأ يعرفه على التنظيم وأعضائه ، والرجل محاط بالعيون وبالجواسيس واللقاء معه صعب جدا ، فهو يحتاج إلى تدبير دقيق .

وابتداء من يوم ٢١ / ٧ / ١٩٦٥ بدأت الاعتقالات الفردية تنفيذا للخطة التى تقضى بتأديب الشعب فى شخص الإخوان ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تفعل فيها الحكومة ذلك ، فقد قبضت على عينات من الإخوان عدة مرات للتأديب والزجر فى مناسبات الهزائم والنكسات مثل ماحدث عقب انفصال سوريا .

ولم يكن تنظيم الشهيد عبد الفتاح إسماعيل معدا لشيء من القتال والحرب ، ولم يفكروا تفكيرا جديا فى الإعداد لذلك ، كل ماكان يشغلهم هو التربية والتعليم وتصحيح العقيدة فى رءوس المندرجين فيه .

وتزايدت أرقام المعتقلين ، وشعرت اللجنة الخماسية بالذعر ، كان أمرهم قد كشف .

وأسرع على عشماوى وهو شخصية عجيبة غريبة عليها مائة علامة استفهام إلى مقابلة سيد قطب وكان فى رأس البر ، وحكى له فى ذعر كيف أن الحكومة تقبض على الإخوان المسلمين وقد قبضوا على بعض أفراد التنظيم فما العمل ؟

– سوف يأتى دور كل واحد من أعضاء التنظيم ويجب أن تعطينا الإذن فى المقاومة والتصدى فأنت تعرف ماذا ينتظرنا فى المعتقل .

وقال له الشهيد سيد قطب :

– وهل لديكم القوة اللازمة لهذا ؟

وفى تأكيد وفخر وتيه قال على عشماوى :

– عندنا قوات وأسلحة تصمد أمام الجيش .

ولعل الرجل قد امتلأ دهشة مما سمع ، فهو حديث عهد ولايعرف التفاصيل .

وانبرى على عشماوى فى حماسة :

– لايجب أن نستسلم كالدجاج لهؤلاء الكفرة المفسدين فى الوقت الذى نستطيع فيه التغلب عليهم ، ولعلها فرصة ساقها الله إلينا للانتقام لمصر والمسلمين ولكل الشهداء ، استطيع تأمين عملية اغتيال جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وعلى صبرى ، وزكريا محيى الدين ، وستهدأ الأمور بعد قتل هؤلاء الكلاب هذه

هى الطريقة الوحيدة للخلاص من وحشيتهم ، فأنت لاتدرى ماذا يفعلون بالمعتقلين الآن .

ولعل الشهيد سيد قطب قد تذكر فى هذه اللحظة التعذيب الوحشى الذى وقع على الإخوان عام ١٩٥٤ ، وكيف حدث له شخصيا عندما مثل أمام محكمة جمال سالم وقميصه قد التصق بجسده من كثرة الدماء التى نزفت منه وهو المريض ، وكانت تهمته أنه رفض أن يكون وزيرا فى وزارة عبد الناصر ، وأذن الرجل مستسلما لعلى عشماوى بالتصرف لحقن دماء كثيرة .

كانت هذه المقابلة فى ١٩ / ٨ / ١٩٦٥ .

وكان التعذيب قد أتى على أسماء الهيكل الرئيسى للتنظيم على وجه التقريب .

وخرج على عشماوى من عند الشهيد سيد قطب ، وصار يمر على عجلة من أمره بمجموعة من شباب التنظيم كلهم من المهندسين والأطباء ، وكانت هذه هى النسبة الغالبة ، وكان فى يده مسدس صغير ليس به طلقات ، وكل من مر عليه وأراه هذا المسدس النادر فى نوعه اعتبر كأنه قد درب على السلاح ، وكان التدريب كما سمعت ممن دربوا لايعدو آن يمسكوا بالمسدس بأيديهم ويقلبوه أمام أعينهم .

واعتبرت النيابة كل من فعل هذا أنه قد تدرب على سلاح تمهيدا لقلب نظام الحكم ، وأيدت ذلك المحكمة ومنحت كل حالة من هذه عددا من السنين يتراوح بين الخمس عشرة والخمس والعشرين مع الشغل الشاق ، وكان ذلك بعد انتهاء العذاب .

ومن طرائف مايروى أن على عشماوى قد زار ثلاثة من أفراد التنظيم وذهب واحد لصنع الشاى ، ولم يبصر المسدس ، وقد شهد بهذا على عشماوى وكان كلامه مصدقا لايشك فيه ، وحكم على

الاثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ومن ذهب ليصنع الشاى كان نصيبه سبع سنوات فقط لأنه لم ير المسدس ولم يقلبه بين يديه !

فى ذلك الوقت سألوا الشهيد سيد قطب عمن يحب أن يخلفه فى رئاسة التنظيم إذا ماأصابه مكروه فاقترح عليهم الشهيد محمد يوسف هواش ، وذهب الشهيد رفعت بكر شافع[1] مع خالته المجاهدة حميدة قطب إلى لقاء هواش أمام كازينو الحمام فى الجيزة ، وطلبا منه أن يأتى للقاء سيد قطب ، واعتذر الرجل لأنه مراقب من رجال المباحث ، ودفع يوسف هواش حياته على حبل المشنقة ، وقيل إن طبيب السجن قد ذبحه بعد الشنق لأنه ظل حيا وكان يمكن أن يعيش ، فعلوا به هذا ثمنا لاختياره خليفة للشهيد سيد قطب فى رئاسة تنظيم لايعرف عنه شيئا ، ولم يلتق بأحد من أفراده إلا فى التحقيق أثناء التعذيب !

لم يأت يوم ٢٣ / ٨ / ١٩٦٥ حتى تم القبض على معظم أعضاء التنظيم على وجه الحصر باستثناء يحيى حسين الذى تمكن من الهرب فى اليوم نفسه ، واعتقلوا زوجته بدلا منه ، وقد تمت هذه الاعتقالات نتيجة لاعترافات على عشماوى صاحب الذاكرة القوية الخارقة والخيال البديع ، وهو يعلم كل شىء ، واعترف والويل لمن ذكر اسمه على لسان صاحبنا هذا ، فهو فى هذه الحالة لا يفيده إنكار ، وعليه أن يعترف اعترافات تتطابق مع ماقاله على عشماوى .

وإن أمسكت بأوراق الادعاء التى تقدمت بها النيابة ضد المتهمين ورفعت منها ماذكره على عشماوى عن المتهم ، أى واحد منهم ، فلن تجد اعتراف المتهم نفسه يرقى إلى مستوى الجريمة ، حتى بمقاييس المباحث العامة والمباحث الجنائية العسكرية .

(١) مات من التعذيب فى السجن الحربى فى الأيام الأولى من سبتمبر سنة ١٩٦٥ (ربما يوم سبعة) .

تكفل على عشماوى – على حسب زعمه وشطحات خياله – بقتل جمال عبد الناصر والقائمة التى ذكرها للشهيد سيد قطب ولكنه أضاف إليها اسماء بعد ذلك منها العقيد شمس بدران ، وكان ينوى أن يقوم بهذه الاغتيالات بذلك المسدس الذى درب عليه أعضاء التنظيم وطاقته ست رصاصات ، يعنى لكل واحد رصاصة بشريطة أن يصوب على بعد عشرة أمتار على الأكثر ويقف عبد الناصر ، وزكريا ، وعلى صبرى والمشير ، وشمس بدران ، وظهورهم مسندة إلى الحائط وهناك علامة كبيرة تبين موضع القلب وأن يجيد على عشماوى التصويب ، وقال إنه اختار الشهيد فاروق المنشاوى ليساعده فى هذه المهمة ، وقد ذبحوا فاروق بعدها فى السجن بمعرفة مسجون محترف القتل والإجرام .

وكانت هذه هى قصة تنظيم الإخوان عام ١٩٦٥ باختصار شديد .